

اقرأ

عباس محمود العقاد

عُبْقَرِيَّةُ الْإِسْلَامِ



دار المعارف بمصر

عَبْقَرِيَّةُ الْإِمَامِ

عباس محمود العقاد

عِبْرَتِ الْإِسْلَامِ

١١٣ [قر]

دار المعارف بمط

اقرأ ١١٣ - الطبعة الثالثة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

صفاته

المشهور عن علي كرم الله وجهه أنه كان أول هاشمي من أبوين هاشميين . فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملاحظها في كثير من أعلامها المقدمين ، وهي فح جملتها النبل والأيد والشجاعة والمروءة والذكاء ، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقى أو تقاربت في عدة من أوائك الأعلام

فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف

وقيل إن اسمه الذي اختارته له أمه حيدرة باسم أبيها أسد ، والحيدرة هو الأسد . ثم غيره أبوه فسماه علياً وبه عرف واشتهر بعد ذلك

وكان علي أصغر أبناء أبويه ، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب ، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين

قيل إن عقيلاً كان أحب هؤلاء الإخوة إلى أبيه ، فلما أصاب القحط قريشاً وأهاب رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعباس أن يحملوا ثقل أبي طالب في تلك الأزمة جاءوه وسألوه

أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لي عقيلًا
 وخذوا من شتم . فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفرًا وأخذ
 النبي عليه السلام علياً كما هو مشهور . فعوضه إيثار النبي
 بالحب عن إيثار أبيه ، ولكنه عرف هذا الإيثار في طفولته
 الأولى فكان سابقة باقية الأثر في نفسه على ما يبدو من أطوار
 حياته التالية ، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على
 توقع واستعداد فتعود أن يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج في
 صباه

وربما صح من أوصاف على في طفولته أنه كان طفلاً مبكر
 النماء سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة ، لأنه أدرك في السادسة أو
 السابعة من عمره شيئاً من الدعوة النبوية التي يدق فهمها والتنبه
 لها على من كان في مثل هذه السن الباكرة . فكانت له مزايا
 التبكير في النماء كما كانت له أعباءه ومتاعبه التي تلازم أكثر
 المبكرين ، ولا سيما المولودين منهم في شيخوخة الآباء

ونشأ رضى الله عنه رجلاً مكين البنيان في الشباب والكهولة ،
 حافظاً لتكوينه المكين حتى ناهز الستين

قال واصفوه وهو في تمام الرجولة إنه كان رضى الله عنه
 أربعة أميل إلى القصر ، آدم - أى أسمر - شديد الأدمة ،
 أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها ، ثقیل العينين في دعج
 وسعة ، حسن الوجه واضح البشاشة ؛ أغيد كأنما عنقه إبريق

فضبة ، عريض المنكبين لهما مشاش^(١) كشاش السبع الضارى لا يتبين عضده من ساعده قد أدجت إدماجاً ، وكان أبجر - أى كبير البطن - يميل إلى السمنة فى غير إفراط ، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ، شئن الكفين ، يتكفاً فى مشيته على نحو يقارب مشية النبی ، ويقدم فى الحرب فيقدم مهرولا لا يلوى على شئ

وتدل أخباره - كما تدل صفاته - على قوة جسدية بالغة فى المكانة والصلابة على العوارض والآفات . فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل ، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس ، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحداً إلا صرعه ، ولم يبارز أحداً إلا قتله ، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه رجال ، ويحمل الباب الكبير يعي بقلبه الأشداء ، ويصيح الصيحة فتتخلع لها قلوب الشجعان

ومن مكانة تركيبه رضى الله عنه أنه كان لا يبالى الحر والبرد ، ولا يحفل الطوارئ الجوية فى صيف ولا شتاء ، فكان يلبس ثياب الصيف فى الشتاء وثياب الشتاء فى الصيف ، وسئل فى ذلك فقال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى وأنا أرمد العين يوم خيبر فقلت : يا رسول الله . إني أرمد العين .

(١) المشاش: رأس العظم .

فقال : اللهم أذهب عنه الحر والبرد ، فما وجدت حرّاً ولا برداً منذ يومئذ . . . »

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغاً ما بلغت بهما القساوة والإيذاء . فقد كان يرعد للبرد إذا اشتد ولم يتخذ له عدة من دثار يقيه . قال هرون بن عترة عن أبيه : دخلت على عليّ بالخوزنق وهو فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين . إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل هذا بنفسك فقال : والله ما أرزأكم شيئاً ، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة

وكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التي يشرف بها من يصيب بها ومن يصاب ، ويزيدها تشريقاً أنها ازدانت بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشجعان الأقوياء . فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها على غير كلفة ولا مجاهدة رأى . وهي التورع عن البغى ، والمروءة مع الخصم قوياً أو ضعيفاً على السواء ، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال

فمن تورعه عن البغى ، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة ، أنه لم يبدأ أحداً قط بقتال وله مندوحة عنه ، وكان يقول لابنه الحسن : « لا تدعون إلى مبارزة . فإن دعيت إليها فأجب .

فإن الداعى إليها باغ والباغى مصروع »

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه ، وقيل
له إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك ، فقال :
« لا أقاتلهم حتى يقاتلوني . وسيفعلون ! »

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل ، وقبل وقعة صفين ، وقبل
كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمض :
يدعوهم إلى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر ، فما رفع يده
« بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلم

* * *

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللد في العداء
لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار
ما استحقوه في موقف الساعة ؛ فاتفق في يوم صفين أن يخرج
من أصحاب معاوية رجل يسمى كريب بن الصباح الحميرى فصاح
بين الصفين : من يبارز ؟ فخرج إليه رجل من أصحاب على
فقتله ووقف عليه ينادى : من يبارز ؟ فخرج إليه آخر فقتله
وألقاه على الأول ، ثم نادى : من يبارز ؟ فخرج إليه الثالث
فصنع به صنيعه بصاحبيه ، ثم نادى رابعة : من يبارز ؟ فأحجم
الناس ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذى يايه ،
وخاف على أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج إلى ذلك الرجل
المدل بشجاعته وبأسه فصصره ثم نادى ندائه حتى أتم ثلاثة

صنع بهم صنيعه بأصحابه، ثم قال مسمعا الصفوف : يا أيها الناس . إن الله عز وجل يقول : الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، ولو لم تبدأونا ما بدأناكم . . . ثم رجع إلى مكانه .

أما مروءته في هذا الباب فكانت أنذر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان . فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبراً أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سراً أو يأخذوا مالا . وصلى في وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء ، وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه والمؤلبين عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء ، وظفر بعمر بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذي عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سواته اتقاء لضربته . وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين وهم يقولون له : ولا فطرة حتى تموت عطشاً . . فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده ، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صنية أم طلحة الطلحات : أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي . فلم يرد عليها شيئاً ، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها . قال رجل أغضبه مقالها : يا أمير المؤمنين . أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع : فانتهره وهو يقول : ويحك ؟ إنا أمرنا أن

نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟
 وإنه لنى طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من
 عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة . ثم ودع السيدة عائشة أكرم
 وداع ، وسار فى ركابها أميالا وأرسل معها من يخدمها ويحف
 بها . قيل إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس
 غمهن بالعمائم وقلدهن السيوف . فلما كانت ببعض الطريق
 ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت : هتلك سترى
 برجاله وجنده الذين وكلهم لى . . . فلما وصلت إلى المدينة ألقى
 النساء عمائمهن وقلن لها : إنما نحن نسوة

وكانت هذه المروءة سنته مع خصومه ، من استحق منهم
 الكرامة ومن لم يستحقها ، ومن كان فى حرمة عائشة رضى الله
 عنها ومن لم تكن له قط حرمة ، وهى أندر مروءة عرفت من
 مقاتل فى وغر القتال

وتعد لها فى النبل والتدرة سلامة صدره من الضغن على أعدى
 الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضغن عليه . فنبى أهله وصحبه أن
 يمثلوا بقاتله وأن يقتلوا أحداً غيره ، ورثى طلحة الذى خلع
 بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة
 وأوصى أتباعه ألا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا
 عليه أمره وكانوا شراً عليه من معاوية وجنده ، لأنه رآهم مخلصين
 وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصريين

* * *

وتقترن بالشجاعة — ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم — صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها ، وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنضج للماء أو بالإشعاع للنور . فلا تكون شجاعة الفروسية إلا كانت معها تلك الصفة التي نشير إليها ، وهي صفة « الثقة » أو « الاعتزاز » أو الادراع بالهيبية والتهويل على الحصوم ولا سيما في مواقف التزال

أما هذا الاعتزاز الذي نشير إليه ، أو هذه الثقة التي تظهر لنا في صورة الاعتزاز ، فهي جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه ولا يزال متصلا بعمله في مواجهة خصومه ، وهو عرض للقوة يساعد الفارس في إرهاب عدوه وإضعاف عزيمته من يتصدى لحربه . مثله هنا كمثل العروض التي تعتمد إليها الجيوش لإعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها . فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها ، وليس كل ما فيها ضرباً من الخيلاء يرضى به الشجاع غروره ويثنيه به في غير حاجة إلى التثية

ولهذا تسمح الناس بالفخر العسكري من قديم الزمن وعهده وتحدثوا به وتناقضوه . فسمحوا للفارس — بل لعلمهم أوجبوا عليه — أن يروع خصمه بالفخر المرعب إذ يتقدم لتزاله ، وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار في ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والإشادة

بغزواته ، وعلموا أنهم - وقد احتاجوا إلى شجاعته - محتاجون كذلك إلى فخره وحاسته وإيقاع الرعب في جنان قرنه . فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة ، وهي أحب القصائد إلى القلوب

وكانت هذه الصفة من صفات علي رضي الله عنه ، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدره بفضله ، وينكرها من ينفس عليه فيسميها الزهو أو يسميها الجفوة والخيلاء . قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر : إنك والله ما علمت لتنظر الخيلاء . . . ومر الزبير بن العوام مع رسول الله في بني غنم ، فرأى رسول الله علياً على مقربة منه فضحك له وضحك علي بحبيبه . فقال الزبير : لا يدع ابن أبي طالب زهو . قال رسول الله : إنه ليس به زهو . ولتقاتلنه وأنت له ظالم

وقد كان مدار هذا الخلق في ابن أبي طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج ، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال . فما منعه الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم أنه شيء في هذه الدنيا وأنه قوة لها جوار يركن إليه المستجير . ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون بالنبي عليه السلام ينذرونه وينكرونه وهو يقلب عينيه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير . . . لو كان بعلي أن يرتاع في مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب

القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع . ولكنه كان علياً في تلك السن الباكرة كما كان علياً وهو في الخمسين أو الستين . فما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصبح صبيحة الواثق الغضوب . أنا نصيرك . . . فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار ، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم

على " هذا هو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش

وعلى " هذا هو الذي تصدى لعمر بن ود مرة بعد مرة والنبي يجلسه ويحذره العاقبة التي حذرهما فرسان العرب من غير تحذير : يقول النبي : اجلس . إنه عمرو . فيقول : وإن كان عمراً . . . كأنه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف ، ولا يعرف إلا الشجاعة التي هو ممتلئ بها واثق فيها في غير كلفة ولا اكتراث

وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التي هي كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها ، وزادها تمكيناً حسد الحاسدين ولحاجة المنكرين ، وكلاهما خليق أن يعتصم المروء منه بقلعة لا تنخذل ، وأنفة لا تلين . فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم ورأى حين كان يقول : « أسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني في

شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة
إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ، ومناخ ركابها ومحط رحالها»
ومن شواهدنا أنه كان يقول — والخارجون عليه يرجونه
بالمروق — : « ما أعرف أحداً من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا
غيري . عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين »

وزاده اتهام من حوله معتصماً بالثقة بنفسه ، فلما عتب عليه
خصمه طلحة والزبير أنه ترك مشورتهم قال : « . . . نظرت إلى
كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته . وما استن النبي
صلى الله عليه وعلى آله وسلم فاقنديته . فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما
ولا رأي غيركما ، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني
المسلمين ، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما . . . »

كان ملاك الأمر في أخلاق علي عليه السلام أنه كان
لا يتكلف إظهار شيء ولا يتكلف إخفاء شيء ولا يقبل التكلف
حتى من مادحيه . فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو منهم
عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ويقول له : « أنا دون ما تقول
وفوق ما في نفسك » . وكانت قلة التكلف هذه توافق منه
خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة .
وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء . كأنه يعني
ما يصنع وهو لا يعنيه ، وإنما يجيء منه على البديهة كما تجيء
الأشياء من معادنها : كان مثلاً يخرج إلى مبارزته حاسر الرأس

ومبارزوه مقنعون بالحديد . أفعجيب منه أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء ؟ وكان يغفل الخضاب أحياناً ويرسل الشيب ناصعاً وهو لا يحرم خضابه في غير ذلك من الأحيان . أفعجيب منه ، مع هذا ، أن يقل اكترائه لكل خضاب سباتراً ما ستر ، أو كاشفاً ما كشف ، من رأى وخلق ؟

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتها ورسوخها ، أو هي قرينة للشجاعة في نفس الفارس النبيل وقلمها تفارقها ، ونعني بها خليقة الصدق الصراح الذي يجترئ به الرجل على الضر والبلاء كما يجترئ به على المنفعة والنعماء . فما استطاع أحد قط أن يحصى عليه كلمة خالف بها الحق الصراح في سلمه وحربه وبين صحبه أو بين أعدائه ، ولعله كان أحوج إلى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء ، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعتوه بالخلاف ، فما عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء . حتى قال فيه أقرب الناس إليه إنه رجل يعرف من الحرب شجاعته ولكنه لا يعرف خدعتها . وكان أبدأ عند قوله : « علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون في حديثك فضل على علمك ، وأن تتق الله في حديث غيرك »

* * *

وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقاله

لسانه . فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة دنيا أو سيب دولة ، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يتختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم » . . . قال عمر بن العزيز وهو من أسرة أمية التي تبغض علياً وتخلق له السيئات وتخفي ما توافر له من الحسنات : « أزهد الناس في الدنيا على بن أبي طالب » . . . وقال سفيان : « إن علياً لم بين آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبه على قصبه » . وقد أبى أن يتزل القصر الأبيض بالكوفة إيثاراً للخصاص التي يسكنها الفقراء ، وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام . وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال : « دخلت على علي عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذنتي حموضته وكسر يابسة . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أناكل مثل هذا ؟ فقال لي : يا أبا الجنوب ؟ كان رسول الله يأكل أبيض من هذا ويلبس أخشن من هذا — وأشار إلى ثيابه — فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به »

* * *

وعلى هذا الزهد الشديد كان رضى الله عنه أبعد الناس من كرازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة ، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقال دعابة ، وروى عن عمر بن الخطاب

رضي الله عنه أنه قال له : « لله أبوك لولا دعابة فيك » وأنه قال لمن سأله في الاستخلاف : « ما أظن إلا أن يلي أحد هذين الرجلين : علي أو عثمان فإن ولي عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولي علي ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على الطريق »

وأغرق ابن العاص في وصف الدعابة فسامها « دعابة شديدة » وطفق يردد لها بين أهل الشام ليقدم بها في صلاح الإمام للخلافة ، وإنما نقول إن ابن العاص أغرق في هذا الوصف ، وأن الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفاته ، لأن تاريخ علي وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلاً على خلق الدعابة فضلاً عن الدليل على الإفراط فيه . فإن كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر بن الخطاب أن يذكره فربما كان مرجع ذلك أن علياً خلا من الشغل الشاغل سنين عدة ، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حيناً إلى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه . فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون ، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه

* * *

والحق الذي لا مرأى فيه أنه كان علي نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف ، وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة في مشكلات الحكم والقضاء ، وأنه كان أشبه الخلفاء

بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير ، وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن ينطرق إليه علم فارس أو علم يونان . . . وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لحفايا الصدور ويشرحها في عظاته وخطبه شرح لأديب اللبيب هذا متفق عليه لا يكثرفيه الخلاف ، ثم يفترق الناس في رأيه رأيين وإن لم يكونوا من شائئين المتحزبين ، فيقول أناس إنه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة ، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضى به الساعة الحازية ولا ينتفع بما يراه. ويقول أناس بل هو الاضطراب والتحرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وإنهم لدونه في الفطنة والسداد . وهو رضى الله عنه قد اعتذر لنفسه بمشابه من هذا العذر حين قال : « والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس »

* * *

هذه صفات تنتظم في نسق موصول : رجل شجاع لأنه قوى ، وصادق لأنه شجاع ، وزاهد مستقيم لأنه صادق ، ومثار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضى والسخط والقبول والنفور، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أن الناس قد أثبتوا له في حياته أجمل صفاته المثلى ، فلم يختلفوا على شيء منها إلا الذى اصطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشهوات ، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه إلى صميم

مفتاح شخصيته

« آداب الفروسية » هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير . وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي تلخصها في كلمة واحدة وهي : النخوة

وقد كانت النخوة طبعاً في عليّ فطر عليه ، وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه ، وعادة من عادات « الفروسية » العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران ، وإن لم يطبع عليها وينشأ في حجرها . لأن للغلبة في الشجاع أنفة تأتي عليه أن يسف إلى ما ينحجله ويشينه ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلماً وتمنعه أن يعمل في السر ما يزرى به في العلانية

وهكذا كان علي رضي الله عنه في جميع أحواله وأعماله : بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى ، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء . فلم ينس الشرف قط ليغتني الفرصة ، ولم يساوره الريب قط في الشرف والحق أنهما قائمان دائماً كأنهما مودعان في طبائع الأشياء . فإذا صنع ما يجب عليه فلينس من شاءوا ما يجب عليهم ، وإن أفادوا كثيراً وباء هو بالخسار

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه ، لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف ، ولم يرد أن يغلبه أو يقتص منه كيئفاً كان سبيل الغلب والقصاص

قال بعض من شهدوا معركة صفين : لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستوياً بساطاً واسعاً وأخذوا الشريعة — أى مورد الماء — فهي في أيديهم . . . وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء . ففزعنا إلى أمير المؤمنين فخيرناه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان فقال له : « ائت معاوية وقل له إنا سرنا مسيرنا هذا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم ، وإنك قدمت إلينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا ، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك ، وهذه أخرى قد فعلتموها إذ حلتم بين الناس وبين الماء ، والناس غير متهمين أو يشربوا . فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له . . . »

ثم قال راوى الخبر ما فحواه إن معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين علي وبين المورد غير حافل بدعوته إلى السلم ولا بدعوته إلى المفاوضة في أمر الخلاف ، فأنفذ معاوية مبدأً إلى حراس المورد يحمونه ويصلون من يقترب منه . ثم

كان بين العسكريين تراشق بالنبل فطعن بالرماح فضرب
بالسيوف حتى اقتحم أصحاب على طريق الماء وملكوه

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء على أن يهتبلها وأن يغلب
أعداءه بالظماً كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة . . . وقد جاء
أصحابه يقولون : والله لا نسقيهموه . . فكأنما كان هو سفير
معاوية وجنده إليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم .
وصاح بهم : « خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم
وخلوا عنهم ، فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم »
ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة ،
فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه إنصافاً لأعدائه ، لأنه نهاهم أن
يسلبوا المال ويستبيحوا السبي وهو في رأيهم حلال . قالوا : أترأه
يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟ فقال : « إنما القوم أمثالكم .
من صفح عنا فهو منا ونحن منه ، ومن لج حتى يصاب فقتاله
منى على الصدر والنحر » وسن لهم سنة الفروسية أو سنة النخوة
حين أوصاهم ألا يقتلوا مديراً ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا
سراً ولا يمددوا يداً إلى مال

ومن الفرص التي أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو
ابن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السواة لا يبالي أن
يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء . فصدف بوجهه عنه نقاً أن
يصرع رجلاً يخاف الموت هذه المخافة التي لا يرضاها من منازل

في مجال صراع . ولو غير على " أتيج له أن يقضى على عمر و لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به ، ولا جناح عليه

لقد كان رضاه من الآداب في الحرب والسلام رضى الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومآثراتها

فكلان يعرف العدو عدواً حينما رفع السيف لقتاله . ولكنه لا يعادى امرأة ولا رجلاً مولياً ولا جريحاً عاجزاً عن نضال ولا ميتاً ذهب حياته ولو ذهب في سبيل حربه . بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلى عليه . وهذه الفروسية هي التي بغضت إليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس من دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام ، فلما سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم : « إني أكره لكم أن تكونوا سبابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان سبكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوى عن الغي والعدوان من لهج به »

وربما شذ عن سنته هذه في بعض الأحيان فإذا هو لا يشذ عنها إلا كما يشذ الفرسان حيث تغلبهم بوادر اللسان .

فندب بين رجال السيف من يسمع الكلمة المغضبة فلا ينطلق
لسانه بكلمة هوراء يجارى بها غضبه الذى طبع على إبدائه
ولم يطبع على كتمانه

ومن قبيل هذا كلمات قالها فى ابن العاص وفى معاوية
وفى الأشعث بن قيس وغير هؤلاء . ولكنه لم يجعلها دليلاً
له كما سبوه على المنابر وأشاعوا ملامته بين أهل الأمصار

شغب على الأشعث بن قيس ومرد عليه الجند وأفضى
بين أنصاره الفتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة
فأغضبه وهاج غيظه فبدره بقوله : « عليك لعنة الله ولعنة
اللاعنين : حائك بن حائك ، منافق بن كافر . والله لقد
أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى ، فما فداك من واحدة
منهما مالك ولا حسبك ، وإن امرأً ولى على قومه السيف
وساق إليهم الختف لخرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد »

وظفق ابن العاص ينعته بين أهل الشام بالهزل والدعابة
ويأمر بسبه على المنابر حتى وجب رده وإدحاض زعمه .
فقال رضى الله عنه فى بعض خطبه : « عجباً لابن النابغة !
يزعم لأهل الشام أن فى دعابة وأنى امرؤ تلعبه : أعانس
وأمارس^(١) . . . لقد قال باطلاً ونطق آثماً . أما — وشر
القول الكذب -- إنه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ،

(١) المانة مضاربة الناس مزاحاً ومغازلة النساء .

ويسأل فيبخل ، ويخون العهد ويقطع الإل (١) ، فإذا كان عند الحرب فأى زاجر وأمر هو ما لم تأخذ السيوف مأخذها ، فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القوم سبته . أما والله إنى ليمنعنى من اللعب ذكر الموت ، وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة . إنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتیه أتیة ويرضخ له على ترك الدين رضىخة (٢) . . . »

وكذلك كان يحبه معاوية وغيره بنتائز هذه الكلمات حين يجترئون عليه بما يغض من حقه ويقدح في دعوته . فلا يشذ عن ديدن الفرسان في روية فكره ولا في بوادر لسانه ، ولكن الفلتات التى من هذا القبيل شيء واتخاذ السباب صناعة دائمة وسلاحاً مشهوراً وسبيلاً إلى القول الباطل شيء آخر

فالإمام على رضى الله عنه فارس لا يخرج من الفروسية فقه الدين بل هو أحرى أن يسلكه فيها ، ولا يخرج من الفروسية بعض المقال في خصومه بل هى بوادر الفرسان بعينها ، ولا تزال آداب الفروسية بشى عوارضها هى المقتاح الذى يدار فى كل باب من أبواب هذه النفس فإذا هو منكشف للناظر عما يليه

(١) الإل القرابة والرحم . (٢) الأتية العطية ويطلقها الرضاخة مع قلة .

إسلامه

ولد على في داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود
لأصنامها ، فكأنما كان ميلاده ثمة إيزاناً بعهد جديد للكعبة
وللعباداة فيها .

وكاد على أن يولد مسلماً
بل قد ولد مسلماً على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد
العقيدة والروح . لأنه فتح عينيه على الإسلام ولم يعرف
قط عبادة الأصنام

فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة
الإسلامية ، وعرف العبادة من صلاة النبي وزوجه الطاهرة
قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه ، وجمعت بينه وبين
صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة .
فكان ابن عم محمد عليه السلام وربيبه الذي نشأ في بيته
ونعم بعطفه وبره . وقد رأينا الغرباء يحبون محمداً ويؤثرونه
على آبائهم وذويهم . فلا جرم يحبه هذا الحب من يحبه
به جد ، ويجمعه به بيت ، ويجمعه به جميل معروف :
جميل أبي طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسه ابن أبي طالب
ويأوى إليه

واختلفوا في سنة حين إسلامه من السابعة إلى السادسة عشرة ، ولعله أسلم في نحو العاشرة لأنه كان يناهزها عند إعلان الدعوة المحمدية ، وكان النبي عليه السلام يتعبد في بيته عبادة الإسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة ، وليس ما يمنع علياً أن يألف تلك العبادة في طفولته الباكرة

ولولا ألفه على لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذي دعى إليه ، فقد أصر كثير من أقرباء النبي على الشرك زمناً طويلاً ، منهم عقيل أخوه وأحب إخوته إلى أبيه . فحارب المسلمين في بدر ولم يسلم وقد وقع في أسر النبي وصحبه . بل اقتداه عمه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه ، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين

على أن الألفه بين ابني العم الكريمين قد أوشكت أن تكون عائقاً لإسلام علي في طفولته الباكرة . لأن النبي عليه السلام أرى أن ينتزع الطفل من دين أبيه وأبوه لا يعلم ، وأشفق أن يكون بهر بعمه وبابن عمه سبيلاً إلى التفرقة بين الأب وابنه وهو لا يدرك ما يفعل ، ولم يشأ أن يعود الطفل الصغير أن يخفى سرّاً عن أبيه كأنه يخدعه بإخفائه ولو في سبيل الهداية والخير . فظل هذا الحرج الكريم عائقاً عسيراً أعسر ما فيه أنه عائق اختيار يهون معه الاضطراب ، أو عائق

حيرة تفل فيها حيلة الكريم . حتى شاع أمر الدعوة المحمدية
وعلم بها أبو طالب ونصر ابن أخيه وأمر علياً بمتابعة ابن
عمه ونصره . فأقبل الغلام البر بأبيه وبكافله لإقبالاً لا تلجلج
فيه على الدين الجديد

وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ، فما كان
الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه ، ولكنه كان الحق
لكل من استحقه وإن بهته وآذاه

وجد درعه عند رجل نصراني فأقبل به إلى شريح
— قاضيه — يخاصمه خصامة الرجل من عامة رعاياه ،
وقال : إنما درعى ولم أبع ولم أهب . فسأل شريح النصراني :
ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصراني : ما الدرع
إلا درعى وما أمير المؤمنين عندي بكاذب . فالتفت شريح
إلى على يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك
على وقال : أصاب شريح . ما لي بينة ! فقضى بالدرع
لنصراني فأخذها ومشى و « أمير المؤمنين » ينظر إليه . . .
إلا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا
فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . . . أمير المؤمنين يدينني
إلى قاضيه يقضى عليه ! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن
محمداً عبده ورسوله ! الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين .
اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك

الأورق . فقال : أما إذ أسلمت فهي لك : وشهد الناس
هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاء في قتال
الخوارج يوم النهروان

* * *

إلا أن المزية التي امتاز بها عليّ بين فقهاء الإسلام
في عصره أنه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير
والتأمل ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام ، فإذا
عرف في عصره أناس فقهوا في الدين ليصححوا عباداته
ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه ، فقد امتاز عليّ بالفقه
الذي يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة .

ويصح أن يقال إن عليّاً رضي الله عنه أبو علم الكلام
في الإسلام ، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه
كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة . فواصل
ابن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن
الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذ علي رضي الله
عنه ، وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن
أبي الحسن علي بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري
وهو تلميذ أبي علي الجبائي وأبو علي الجبائي أحد مشايخ
المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء . أما الفقه فإمامه
الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن محمد

قرأ على أبيه وهكذا ينتهى الأمر إلى عليّ رضي الله عنه .
وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأى وقرأ ربيعة على
عكرمة وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس وقرأ عبد الله بن
عباس على عليّ رضي الله عنه . وقيل لابن عباس : أين
علمك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة من المطر
إلى البحر المحيط

قال ابن أبي الحديد : « ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة
وأحوال التصوف . وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع
بلاد الإسلام إليه ينتهون وعنده يقفون . وقد صرح بذلك
الشبلى والجنيد وسرى وأبو زيد البسطامي وأبو محفوظ معروف
الكرخنى وغيرهم ، ويكفيك دلالة على ذلك الحرقرة التي
هى شعارهم إلى اليوم وكونهم يسندونها بإسناد متصل إليه
عليه السلام . . . »

وقد جمع « نهج البلاغة » نماذج شتى من الكلمات
التي تنسب إليه ويصح أن تحسب أصلاً « للعلم الإلهي »
أو لأسرار التصوف في صدر الإسلام قبل اشتغال المسلمين
بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية . وربما وقع الشك في
نسبة بعض هذه الكلمات إلى عليّ رضي الله عنه لأنها تجمعت
بعد عصره بزمان طويل وامتزج بها ما لا بد أن يمازجها من
علوم القرن الثالث وما بعده . ولكن شيئاً على هذا النهج

لا بد أن يكون قد صدر منه حقاً حتى جاز أن يتصل النسب
بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذى تواترت
به الأقوال وأجمله ابن أبي الحديد فيما تقدم

ولنا أن نقول إنه كان رضى الله عنه يتلمذ للقرآن الكريم
ويستوحيه نصاً في عرفان إسلامه وتقرير إيمانه . فكانت
نظرته إلى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر فيها ما شاء ابتكار
التلميذ في الحكاية عن الأستاذ . فكلامه عن الطاووس والحفاش
والزرع والسحاب إنما هو الدرس القرآنى الذى وعاه من أمر
الكتاب بالنظر في المخلوقات ووصف الكتاب لطوائف منها
كأنمل والنحل والطير والأجنة في الأرحام

ونحن لا نستغرب ابتداء النظر الفلسفى على نحو من
الأنحاء في عصر الإمام على رضى الله عنه ، لأنه كان
عهداً نبت فيه أصول الفرق الإسلامية جميعاً من الخوارج
والشيعة والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجتهدين في
قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب . . . فأقرب شيء
إلى المعقول أن يكون لإمام العصر كله قدوة في الاجتهاد
والنظر وعنواناً للنوازع التى تفرقت بين أهل زمانه ، وتعبيراً
صادقاً لتفكيره ووعيه ، وصاحب أقوال من قبيل هذه
الأقوال التى قدمناها وإن لم تكن هى إياها بالنص والتفصيل .

عصر الإمام

كانت الظاهرة الكبرى في عصر عليّ ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله ، ولم تكن في حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية عسكرية ، على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التي أريقَت في حروبها
فعصر أبي بكر كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الإسلامية

وعصر عمر كان هو العصر الذي تم فيه لإنشاؤها
وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الإسلامي بعد نشأة الدولة الجديدة ، فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المملوكة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التي تولّاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهاها

أما عصر عليّ فكان عصرًا عجيبًا بين ما تقدمه وجاء في أعقابه ، أو هو لم يكن عجيبًا لأنه جرى على النحو الذي ينبغي أن يجري عليه . فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب ، لأنه كان بناءً جديداً في سبيل التمام ،

ولم يكن بناء متداعياً فكله هدم واندثار ، ولا بناء قائماً مفروغاً منه فكله رسوخ واستقرار

إلا أن العجيب فيه حقاً أنه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين : في أحدهما كل عوامل الرضى عن النظام الاجتماعى والرغبة فى بقاءه وتدعيمه ، وفى الآخر كل عوامل التدمير من النظام الاجتماعى والتحفز لتقويضه وتحويله

أحدهما وهو قسم الرضى عن النظام الاجتماعى كان قسم معاوية بن أبى سفيان فى الشام وما جاورها

والآخر وهو قسم التدمير من النظام الاجتماعى — كان قسم على بن أبى طالب فى الجزيرة العربية بجملة أنحائها

* * *

كانت الشام بمعنى من المعانى أرضاً أموية فى عهد الجاهلية . فلجأ إليها أمية نجد الأمويين حين غلبه هاشم على الزعامة ، وقصد إليها أبناؤه متجرين أو مهاجرين إلى ما بعد قيام الدعوة الإسلامية

ثم قامت الدعوة الإسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبى سفيان أن يتولى الإمارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبى بكر الصديق ، وخلفه أخوه معاوية من قبل الخليفة عمر ، فلم يزل مقيماً على إمارتها بضع عشرة سنة إلى مبايعة على بالخلافة بعد مقتل عثمان . فانتفع له من فسحة الوقت

وفسحة الرخاء مجال م مهد لتأسيس السلطان الأموى الذى لا ينازعه منازع من حوله . ولم يزل منذ توليها عاملا على البقاء فيها واصطناع الأعوان المؤيدين له فى حكمها . فلم يتوان فى استرضاء رجل ينفعه رضاه ، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد من الأتباع والأجناد . بل كان يرضى لكل من وسعه إرضاءه ، وقد وسعت ثروة الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع إليه

وعلى قدر هذا الدأب الشديد فى اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله فى اتقاء أسباب التمرد ، والإخلال بالنظام كما نسميه فى هذه الأيام ، فما سمعت قط صيحة فتنه إلا بادر إليها بما يسكتها ويردها إلى طلب الاستقرار والدوام . فمن أجدى معه المال أسكته بإغداق المال عليه ، ومن كان من أهل الجحد والإخلاص فى العبادة والزهادة فهو محتال على إقصائه أو نفيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه فى المصلحة ، ولا تعييه

حقن بعض الزهاد على هذا الترف الذى استفاض بين العلية والشرفاء فارتفعت عليهم صيحة أبى ذر الغفارى بالنكير ، فأشفق معاوية من مغبة هذه الصيحة وأرسل إلى أبى ذر ألف دينار يسكته بها إن كان ممن يسكتهم الغنى عن الأغنياء . فما طلع النهار حتى كانت الدنانير فى أيدي

المعوزين الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون إليه . ثم صلى معاوية الصبح وأرسل إلى الداعية الأمين رسوله الذي حمل إليه الدنانير يقول له : « أنقذ جسدى من عذاب معاوية فإنه أرسلنى إلى غيرك فأخطأت بك . فقال له : يا بنى . قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار . ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها » ... فعلم معاوية أن الرشوة هنا لا تغنى عن القسوة . وكتب إلى الخليفة أن أبا ذر أعضل به فلا طاقة له بالصبر عليه ، فأتاه الإذن بنى أبى ذر من الشام إلى المدينة ، ثم ضاقت به المدينة أيضاً فنفى منها إلى قرية من أرباضها حيث لا يسمع له دعاء

وصنع بعبد الله بن سبأ — صاحب القول — برجعة النبي إلى الدنيا ووصاية على علي الخلافة — مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فأعياه . فلما يثس منه ومن ترغييه أو ترهيبه ضيق عليه ثم أقصاه .

* * *

وهكذا تعاقبت السنين ، وكل سنة تزيد معاوية وفرة من أسباب الرضى والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح إلى التغيير ، حتى تحيزت له الشام عند مبايعة على وفيها أعظم ما يتأتى في مثل ذلك العهد من دواعى السكينة واستدامة الحال ، وأقل ما يتأتى فيه من شواجر الفتنة والعصيان .

أما على فقد شاعت المصادفات أن تنعكس الآية في حصته من الدولة الإسلامية أيما انعكاس . فأوشكت أن تنعدم فيها دواعي الرضى والاستدامة ، وأوشكت أن تم فيها شواجر الفتنة وما نسميه اليوم بالإخلال بالنظام

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازيين وبين الكوفة ، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة ، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى هؤلاء وهؤلاء . حتى ضاق به المقام في الحجاز وأوى إلى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء بالنار »

وكانت قبائل البادية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ، وينظرون إليهم نظرهم إلى القوى المستأثر بجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة . وهى حالة كان أحجى بالولاية أن يخفوها ويتلطفوا فى إصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من إصلاح وتبديل . ولكنهم على نقیض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد ابن العاص وإلى الكوفة : إنما السواد بستان لقريش !

وظهر هذا السخط من أثره قريش فى خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين علي وأنصاره . فقام فى الجمع رجل من عبد القيس يقول :

« يا معشر المهاجرين ! أنتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل . . . » إلى أن قال يشير إلى خلافة أبي بكر : « ولم تستأمرونا في شيء من ذلك فجعل الله للمسلمين في إمارته بركة . ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا في ذلك . فرضينا وسلمنا ، فلما توفي جعل أمركم إلى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم علياً من غير مشورة منا . فما الذي نقمت عليه فنقاتله ؟ . . . »

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه في صدر مقاله . فكيف بكلام الرجال ممن ينسبون هذا الفضل أو تغلبهم المنافسة على الشهادة به في معرض الخصومة ! ولعل النافذين بهذا الغيظ كانوا يثوبون إلى بعض الصبر والتجاوز لو أنهم وجدوا من يشكون إليه فيحسن الإصغاء إلى شكواهم والاعتراف لهم بالحق في دعواهم . ولكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم إلى الصمت راغمين . فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله لساعته لولا أن حمته عشيرته وصحبه . ثم وثبوا عليه في الغد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين

* * *

وكان العبيد والموالى والأعراب المحرومون حائقين متبرمين

لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الإنصاف ، ولقد يكون معظم المتآمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالي والأعراب المحرومين . فلما طُلب على " بالاعتصاف منهم لمقتل عثمان قال : « . . . كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ ما هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا . فهلا ترون موضعاً لقتل على شيء مما تريدون ؟ »

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها : « أيها الناس ! إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس . . . والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم . . . »

* * *

وكان مع على " جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقهاء والشريعة ، وهم خلق كثير يعدون بالآلوف ويتفرقون في الخواضر والنبوادي ، ولا يزالون كأنبياء بنى إسرائيل منذرين متوعدنين ساخطين على ترف المترفين ، منكرين لكل خلاف ولو يسير في إقامة أحكام الدين . لا يرضون عن الدنيا ولا عمن رضي بها من طلابها ، ولا يستمعون إلى أمر إلا أن يكون في رأيهم وفاقاً لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنة

كما يعتقدونها . وطالما وقفوا بين عليّ وبين القتال لأنهم لا يستجيزونه ، أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يحلون القرآن عن قبوله . فإذا كان أجناد معاوية يسمعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين الجمل والناقة فهؤلاء الأجناد العارفون لا يسمعون إلا ما أجازوه واستجوبوه . لأنهم خرجوا في الأرض للتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر . فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون أو يسالمون في جماعة . وهم أقرب الناس في ذلك العهد إلى الجهر بالنذير والنداء بالتبديل والتغيير ، والإصغاء إلى وحي الضمير قبل دعاء الأمير .

* * *

واجتمع مع عليّ في الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع إليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزاحمونه عليها ، فمنهم من كان يقول لعليّ : نبايعك على أنا شركائك ، ومنهم من كان يتعلل بقلّة المشاورة له والمبالاة بقوله . ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب عليّاً باسم عثمان ، تمحلا للنرائع الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور .

* * *

وقد كان أبو بكر وعمر يمسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا في الأرض فيقبلوا الدنيا ويشجر

بينهم من النزاع ما يشجر بين طلابها ، ثم ينصدع شمل الأمة بالتشيع لهم وعليهم والتفرق بين أنصارهم وأعدائهم . وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلا : « ... احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه ، وإن متهم لحيرة عند زلة واحد منهم . فإياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله ... »

فلما صارت الخلافة إلى عثمان أهل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم يجواره ، فانطلقوا حيث ذهبت بهم المذاهب ، وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن عوف : « ورأيتم الدنيا قد أقبلت ... حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يآلم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي (١) كما يآلم أحدكم إذا نام على حسل السعدان ... »

روى المسعودي أنه « في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مائة ألف دينار وخلف إبلا وخيلا كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ،

(١) منسوب إلى أذربيجان .

وخلف ألف فرس وألف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على مرتبط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً ، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضاً بمصر والكوفة والإسكندرية ، وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبنائها بالحصص والآجر والساج ، وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات ، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها محضصة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منه خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف درهم .

* * *

هؤلاء أيضاً أصبحوا في حصص على من الدولة الإسلامية عنصراً من أقوى عناصر القلق والتبرم والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة ، خلافاً لأمثالهم ونظرائهم في معسكر معاوية .

فالذي يغلب على أصحاب الثروات في كل مجتمع أنهم أنصار الحالة القائمة وأعداء الثورة والاضطراب السياسي

أو الاجتماعي على التخصيص ، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا
المعهود في مجتمع عليّ فأصبحوا قادة السخط والشكوى وأعوان
الثورة والتغيير ولو في سرائر القلوب كلما حيل بينهم وبين
الظهور في الثورة بفعل محسوس . لأنهم عرفوا علياً من قبل
ومن بعد فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث أن
يحاسبهم على ما جمعه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد .
عرفوا مذهبه في حساب الولاية ومذهبه في حساب الخلافة .

فلما كان والياً لليمن أتى على بعض الصحابة أن يركبوا إبل
الصدقة وقال لهم : إنما لكم منها سهم كما للمسلمين . ثم
لام العامل الذي أذن لهم أن يركبوها في غيبته وهو منصرف
إلى الحج . وشاعت هذه القصة لأن أناساً شكوه إلى رسول
الله عليه السلام ، فأنكر شكواهم منه وقال : « لقد علمت
أنه جيشن في سبيل الله »

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب عليّ عليه ، لأنه أباح
للعمال والولاة ما ليس بمباح في رأيه ، ولقى بالعتاب كل صحابي
من إخوانه جمع مالا واستهوته فتنة البذخ والثراء
وليس مذهبه والياً ولا مذهبه خليفة بمريح أولئك الأغنياء
الذين ذاقوا حلاوة الغنى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه
ولم يكن في وسع عليّ أن يغض عنهم نظره ولو شاء
ذلك ، وهو لا يشاؤه ولا يحله لنفسه وقد أنكره على غيره

لأنه إذا غض نظره لم يستطع أن يغض الأنظار المفتوحة التي ثارت بعمان وبايعت علياً بعده ليصنع غير ما صنعه عمان وغير ما أثارهم عليه

فلا دعاة الدنيا راضون مطيعون ولا دعاة الدين راضون مطيعون ، ولا الفقراء والجهلاء راضون مطيعون ، وما منهم إلا من هو قلق متوثر لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار

وإن هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفي غنى عن علة أخرى من علل الفساد والشقاق تضاف إليها . ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التي اصطلحت على حصّة على من الدولة الإسلامية . فقد أضيفت إليها علة أخرى ، بل أضيفت إليها أكبر العلل التي تبطل بها دولة أو حكومة . وهي اعتمادها في مواردها على غيرها

فكانت موارد الشام في الشام نفسها من خراج أو أنفال أو تجارة . أما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وإن دخلت في طاعته وجنحت إلى القائم بالأمر فيه . وكانت مصر والسودان من حصّة على ، ولكنه لم ينتفع بمصر كثيراً لتعاقب الولاة فيها ، ولم يستفد بالسودان كثيراً لتعاقب النتن والغارات عليها . وحسبك من هذا داعية قلق وباعث مخافة ومبطل أمان وطمأنينة

وينبغي أن نذكر أن الحيلة في هذا التقسيم قليلة ،

وأن الحوادث هي التي اختارت لكل حصّة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها وأقربهم إلى ولاية أمرها و« كما تكونوا يول عليكم » . . . ولا محل في هذه القاعدة لحيلة أو اختيار

فلم يكن أحد أشبه بقيادة المنافع المستبقة من معاوية ، ولم يكن أحد أشبه من عليّ بقيادة الشكوى التي تطمح بأصحابها إلى التغيير

إن شكّا أناس غلبة قریش فعلىّ كان يشكو منها ويظن الظنون بحقدّها عليه ونكرانها لحقه

وإن جاءت صيحة الإصلاح والتغيير من طريق الذين على مذهب الحفاظ والقراء والنساک فعلىّ كان إمام أهل العلم والقراءة ، وأحق من يتكلم بتفقيه أو تفسير

وإن جاءت من ضيم الفقراء فعلىّ فقير ، أو من تهافت الولاة على المال فعلىّ يبغض التهافت كما يبغضه أضعف الفقراء ، عن زهد فيه لا عن قلة في الوسائل إليه

فما شكّا شاك قط إلا وعلىّ شريك له في شكواه . وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التي قامت على التبرم بالحال والطموح إلى التغيير ؟ وأي حيلة له إلى بجانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير ؟

البيعة

بويح لعلّ بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية في تاريخ الإسلام ، وهي مقتل الخليفة عثمان بن عفان في شيخوخته الواهنة بعد أن حصروه بين جدران داره ، وكاد يقتله الظماً لو أمهله القتلة بضعة أيام

وأفجع ما كان في هذه الحادثة أنها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد في اتقائه ، لأن المستولين عنه كثيرون متفرون في كل جانب يناصره أو يعاديه . فإذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء ، وإذا بطل الشر الذي فيه اختيار لم يبطل الشر الذي لا اختيار فيه ، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صنوين متساويين . فن الأعمال المؤسفة التي عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه ، أو لعله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة ، وليست هي في تعجيلها ولا في سوء مغبتها بأهون من أعمال الأعداء

مضت السنون الأولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تمضي في عهد خليفة ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعي ومن جانب

الرعية ، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها ، وإن ظهرت عواقبها طارئات

وتتعدد الأسباب التي أوجبت ذلك التغيير بعد السنوات الأولى ، ولكنها قد تنحصر في سببين اثنين نجامعين لغيرهما من الأسباب العديدة ، وهما إمعان الخليفة في الشيخوخة ، واستمراء الأعوان لما نعموا به من لين الخليفة ولين الرغد والمتاع

ولأننا نجتزئ هنا بالإشارة إلى التدمير الذي أثار الفتنة ، والإلمام بأسبابه عند أصحابه ، فأهم هذه الأسباب أنه خالف بعض السنن التي اتبعها النبي عليه السلام في الأذان والصلاة ، وأنه أدنى أناساً من أقاربه كان رسول الله عليه السلام قد أقصاهم عن المدينة ، فاستدعاهم إليه بعد استخلافه وأغدق عليهم المنح والأموال ، وأنه أطلق العنان لأبناء أسرته في الولاية والعمالة ، ومنهم من اتهموه بإقامة الصلاة وهو سكران ، وأنه منح سفيان بن حرب مائتي ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم زوج بنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال ، وأنه توسع في بناء القصور وحرم بعض الصحابة وضرب بعضهم على مشهد من الملأ ضرب إهانة ولإجماع

ولم تنقض سنوات على هذه الحال حتى كثر المتفرون

من جانب والمثربون من جانب آخر ، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائماً في أمثال هذه الأحوال من الملاحاة والبغضاء والتزديد بالتهم واللجاجة ، وإضافة الأوهام إلى الحقائق في خلق ذرائع الخلاف والشحناء

وبدل على خطر مسألة الثروة في هذه الفتنة أن الناس تألبوا على الخليفة مرة فأرسل في طلب عليّ ليصرفهم عنه ، فلما تقدم إليه استأذنه في إعطائهم بعض الرغد العاجل من بيت المال ، فأذن له . فانصرفوا عن زعماء الفتنة وهدأوا إلى حين

ثم توافد المتذمرون من الولايات إلى المدينة مجندين وغير مجندين

وتولى زعامة المتذمرين في بعض الأحيان جماعة من أجراء الصحابة كتبوا صحيفة وقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على ما أخذ الخليفة ، فلما حملها عمار بن ياسر إليه غضب وزيره مروان ابن الحكم وقال له : « إن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس . وإنك إن قتلتته نكلت به من وراءه » فصر به حتى غشى عليه

وكان بعض الوفود يشكون ولائهم فإذا عادوا إلى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضرباً على ملا من الساكنين الذين ينتظرون الإنصاف . فيعود المضروبون

إلى الشكوى وينصرهم أجلاء الصحابة عند الخليفة ويسألونه أن يولى عليهم غير واليهم المسمى إليهم . فإذا توجه الولى بالحديد إلى مكانه إذا فى الطريق رسول يحمل خطاباً للولى المعزول ، يأمره فيه بقتل من يفد إليه من حاملى الشكوى وحاملى كتاب الولاية ، ويقره فى مكانه !

* * *

وظل الخليفة والثوار يشتبكون ويتحاجزون لا هم فى حرب ولا هم فى سلام . وكلما تحاجزوا بعد اشتباك منذر بالشر زاد الخليفة ضعفاً وزاد الثوار ضراوة وزاد التوجس بينهم استفحالا واتسع مع التوجس مجال السعاية والإرجاف بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله وتوسط على بين الخليفة والثوار فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكروهين وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى وتفاقت الفتنة وأحاط الثائرون ببیت عثمان لا يقنعون فى هذه الكرة إلا أن يعتزل ، أو يسلمهم مروان بن الحكم ، أو يعزلوه عنوة

وجاء فى رواية « شداد بن أوس » أن علياً رضى الله عنه خرج من منزله يومئذ معتماً بعمامة رسول الله متقلداً سيفه ، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والأنصار

حتى حملوا على الناس وفرقوهم ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه
 على وقال بعد تمهيد وجيز : « . . . لا أرى القوم إلا قاتليك
 فرنا فلنقاتل » . فقال الخليفة : أنشد الله رجلا رأى لله حقاً
 وأقر أن لى عليه حقاً أن يهريق في سبني ملء محجمة من
 دم أو يهريق دمه في . فأعاد على القول فأعاد عليه هذا
 الجواب . ثم خرج من عنده إلى المسجد وحضرت الصلاة
 فنادوه : يا أبا الحسن . تقدم فصل بالناس . فقال : لا أصلى
 بكم والإمام محصور ، ولكني أصلى وحدي . ثم صلى وحده
 وانصرف إلى منزله ، وترك ابنه مع أبناء زمرة من الصحابة
 في حراسة دار الخليفة ، ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل
 ذى خطر في الإسلام إن وصلوا إلى الخليفة باعتداء . عساهم
 إن علموا ذلك أن يهيبوا المركب فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه
 إلا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون
 بالمطاوله ، فتسوروا الدار وولغوا في دم طهور لو هان على
 صاحبه أن تسفك الدماء في سبيله لعز عليهم أن يسفكوه

* * *

وللإفاضة في مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل مكان غير
 هذا المكان وكتاب غير هذا الكتاب

فإنما نحن في صدد الموقف الذى وقفه على من هذه
 الجريمة وما ينم عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريته وجهره ،

ولأنما يعنيننا هنا أن نسأل : أكان عليه وزر في هذه الجريمة ؟
أكان في مقدوره عمل صالح يعمل به لإنقاذ عثمان من هذا
المصير ؟

فالحقيقة التي لا يطول فيها الريب أن علياً رضي الله عنه
لم يكن أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من
عثمان نفسه ، لو شاء عثمان أن يستمع إلى بعض الناصحين إليه
فقد كان معاوية والياً عزيزاً له جند يرسله إلى الخليفة
فيحميه في الشدة اللازمة وإن أباه ، وكان لمعاوية قبول عند
عثمان لم يكن لعلّ ولا لأحد من خلائه ، وكان هو أقمن
أن يميل بعثمان إلى الرضى بالحراسة أو الرضى بالرحلة إلى مكة
أو الشام ، لو أراد

وكان في وسع عثمان أن يرحل إلى مكة وهي آمن له
من المدينة ، أو يرحل إلى الشام وقد كانت مفتوحة له قبل
أن تغلقها الفتنة ويمرد الثوار على العصيان

أما عليّ فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيلته العقل
في تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجراح ، وكان عليه
أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفرس كلما حيل بينها
وبين الانطلاق

كان ناقداً لسياسة عثمان وبطانته التي حجبت عن قلوب

رعاياه ، ناصحاً الخليفة بإقصاء تلك البطانة وتبديل السياسة التي تزينا له وتغريه باتباعها وصم الآذان عن الناصحين له بالإفلاع عنها

وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث كلما هجم الثوار على تلك البطانة وهموا بإقصائها عنوة من بجوار الخليفة كان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعي في الإصلاح ، وكان الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار

ولم يكن في العالم الإسلامي كله رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة التي تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ، ولا خلاص !

ففي المؤتمر الذي جمعه الخليفة للتشاور في إصلاح الأمر وقمع الفتنة لم يكن على مدعوا ولا منظورا إليه بعين الثقة والمودة . بل كان المدعوون إلى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه ، وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص ، وهم في جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم على وجهرة الصحابة ، وبرمت بهم صدور المهاجرين والأنصار

قال لهم عثمان : « إن لكل امرئ وزراء ونصحاء وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي . وقد صنع الناس ما قد رأيتم

وطلبوا إلى أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون . فاجتهدوا رأيكم وأشيروا على »

قال معاوية : « أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك قبلي. »

رأى رجل يريد أن يحتفظ بولايته ولا يريد أن يغضب أحداً من أصحاب الولايات في غير مصره

وقال عبد الله بن عامر : « رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك فلا يكون همه أحدهم إلا نفسه ... »

رأى رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها ، ثم هو لا يبالي أن يخلق جهاداً تسفك فيه الدماء في غير جهاد مطلوب

وقال عبد الله بن سعد : « أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع فأعطيهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم »

رأى رجل يشتري الرضى بالرشوة ، ويستتبق ما في يديه منها

وقال عمرو بن العاص وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع في ولاية يرجوها : « أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون فاعتزم أن تعدل فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل ، فإن أبيت فاعتزم عزمًا وامض قدامًا »

رأى رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار ، ولهذا

بقى حتى تفرق المجتمعون ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره : « والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز عليّ من ذلك . ولكنني قد علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي فأقود إليك خيراً وأدفع عنك شراً ... » وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان ، ومن ورأيهم مروان بن الحكم يلزمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه ، وفي مقدمتهم عليّ وإخوانه . ثم تفرق المؤتمرون وقد رد عثمان كل عامل إلى عمله ، وأمره بالتضييق على من قبله

فكانت حيلة عليّ في تلك المعضلة العصبية جد قليلة ، وكان الحول الذي في يديه أقل من الحيلة . إلا أنه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل فعلق بالنقيضين ، معصوب بالتبعيتين ، مستول عن الخليفة أمام الثوار ومستول عن الثوار أمام الخليفة

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة يتخطون الخليفة إليه ويعرضون الخلافة عليه ، فلقبهم أسوأ لقاء وأنلرهم لئن عادوا إليها ليكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم جزاء العصاة المفسدين في الأرض

وجاءوا مرة أخرى وحجتهم ناهضة ، ودليل التهمة التي يتهمون بها بطانة عثمان في أيديهم : جاءوه بالخطاب الذي

وجدوه في طريق مصر مع غلام عثمان يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيراً وأجابهم إلى تولية العامل الذي يرضيهم . فلم تخذعه حججهم الناهضة ولم يشأ أن يعلى لهم في ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه ، وجعلهم متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين فقال لهم : وما الذي جمعكم في طريق واحد وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم إلى وجهة ؟

وكانت حيرة على بين التقريب والإبعاد أشد من حيرته بين الخليفة والثوار . فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكشف الناس عن الهتاف باسمه ، ويستدعى إليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة . فلما تكرر ذلك قال لابن عباس الذي حمل إليه رسالة عثمان بالخروج إلى ماله في ينبع : « يا ابن عباس . ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جحلاً ناضحاً بالغرب — أي الدلو — أقبل وأدبر : بعث إلى أن أخرج ، ثم بعث إلى أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث إلى أن أخرج ، والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثمًا »

ثم بلغ السيل الزبي ، كما قال عثمان رضي الله عنه ، فكتب إلى علي يذكر له ذلك ويقول : « إن أمر الناس ارتفع في شأني فوق قدره ، وزعموا أنهم لا يرجعون دون ذي وطمع في من لا يدفع عن نفسه

فإن كنتُ مأكولاً فكن خيراً آكلي
ولاً فأدركني ولأ أمزق . . . »

فعاد على " وجهه في إنقاذ الخليفة جهده ، ولكنه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلى به أطباؤه . فكلهم يريد تغييراً يتأتى من قبل الغيب أو يأتي من قبل الآخرين ولا يغير شيئاً من عمله أو مستطاعه . ولعل الخليفة لو شرع في التغيير المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظم جدوى ، لفوات أوانه وانطلاق الفتنة من أعنتها ، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وقر في النفوس ولغطت به الأفواه .

وعد الخليفة وعده الأخير ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال

وأحاطت به بظانته كدأبها في إثر كل وعد من هذه الوعود ، تنهات أن ينجزه وتخيفه من طمع الناس فيه ، إن هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه

وكانت المرأة أصدق نظراً من الرجال في هذه الغاشية التي تضل فيها العقول : فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء على " والإعراض عن هذه البطانة ، ولم يكن أيسر على بطانته من إقناعه بضعف هذا الرأي بعد سماعه من امرأة ضعيفة . فكان مروان يقول له : « والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجل من توبة تخوف عليها ... »

وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس فلا يكلمهم
إلا بالزجر والإصرار ، كما قال لهم يوماً : « ما شأنكم قد
اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب . شأنت الوجوه . . . جئت
تريدون أن تنزعوا ملكنا . . . ارجعوا إلى منازلكم فإننا را
ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا »

إذن بطلت الرواية ولم يبق إلا لحظة طيش لا يدري
كيف تبدأ ، ولا يؤتى لأحد إذا هي بدأت أن يقف بها
دون منهاها

هجم الثوار على باب الخليفة ففتحهم الحسن بن علي
وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن
العاص وطائفة من أبناء الصحابة

واجتلدوا ففتحهم عثمان وقال لهم : أنتم في حل من نصرتي ،
وفتح الباب لينزع الجلاذ حوله . ثم قام رجل من أسلم يناشد
عثمان أن يعتزل ، فرماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله ، فجاء
جنود الثوار يطلبون القاتل من عثمان وعثمان يأبى أن يسلمه
ويقول لهم : « لم أكن لأقتل رجلاً نصرتي وأنتم تريدون قتلي ... »
وعز على الثوار أن يدخلوا من الباب الذي كان قد أغلق
بعد فتحه ، فاقتحموا الدار من الدور التي حولها . وأقدموا
على فعلتهم النكراء بعد إحجام كثير

ونقل الخبر إلى المسجد وفيه علي جالس في نحو عشرة

من المصلين فراعته منظر القادم وسأله : ويحك ما وراءك ؟ ...
قال والله قد فرغ من الرجل . فصاح به : تباً لكم آخر الدهر ،
وأسرع إلى دار الخليفة المقتول . فلطم الحسن وضرب الحسين
وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه :
كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ فأجاب طلحة :
« لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان
ما قتل »

* * *

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيونخه : « بقيت
المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان وأميرها الغافقي بن حرب
يلتمسون من يجيهم إلى القيام بالأمر ، والمصريون يلحون على
عليّ وهو يهرب إلى الحيطان ^(١) ، ويطلب الكوفيون الزبير
فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيهم ، فقالوا
فيما بينهم : لا نولى أحداً من هؤلاء الثلاثة . ففضوا إلى سعد
ابن أبي وقاص فقالوا : إنك من أهل الشورى . فلم يقبل منهم ،
ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم ، فحاروا في أمرهم . ثم
قالوا : إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير
إمرة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم ، فرجعوا إلى عليّ
فألحوا عليه ، وأخذ الأشر بيده فبايعه وبايعه الناس ...

وكلهم يقول : « لا يصلح لها إلا عليّ ». فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة بيده السلاء ، فقال قائل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم الزبير ، ثم قال الزبير : إنما بايعت علياً واللعن على عنتي والسلام . . . »

وهذا الخبر على وجازته قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة بالمدينة عند مقتل عثمان ، وربما كان أشدهم طلباً لها طلحة والزبير اللذان أعلننا الحرب على عليّ بعد ذلك ، فقد كانا يمهدان لها في حياة عثمان ويحسبان أن قريشاً قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمي ، وأن علياً وشيك أن يذاد عنها بعد عثمان كما ذيد عنها من قبله ، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تؤول الخلافة إلى واحد من هذين ، أو إلى عبد الله بن الزبير ، لأن طلحة من قبيلة تيم والزبير زوج أخيها أسماء ، وفي تأييد السيدة عائشة لواحد منهم مدعاة أمل كبير في النجاح

على أن الرأي هنا لم يكن رأى قريش ولا رأى بني هاشم

فلو أن عثمان مات حتف أنفه ولم يذهب ضحية هذه الثورة لحاز أن تجتمع قريش فتعقد البيعة للخليفة غير علي ابن أبي طالب ، وحاز أن يختلف بنو هاشم فلا يجتمع

لهم رأى على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة وهم
عقيل وعلى وابن عباس

ولكنها الثورة الاجتماعية التي تنشأ رجلها دون غيره
ولا محيد لها عنه ، فإن ترددت أياً فذاك هو التردد العارض
الذي يرد على الخاطر لا نهالة قبل التوافق على رأى جازم .
ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذي تتجه إليه وحده على
الرغم منها .

فلم تكن المسألة خلافاً بين على ومعاوية على شيء
واحد ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو ذاك .

ولكنها كانت خلافاً بين نظامين متقابلين وعالمين
متنافسين : أحدهما يتمرد ولا يستقر ، والآخر يقبل الحكومة
كما استجلت ويميل فيها إلى البقاء والاستقرار .

أو هي كانت صراعاً بين الخلافة الدينية كما تمثلت
في على بن أبي طالب ، والنولة الدنيوية كما تمثلت في معاوية
ابن أبي سفيان

هذه هي العلة الكبرى التي تنطوي فيها جميع العلل الظاهرة
وخلق بكل علة أخرى أن تكون علة موضوعة يستر
صاحبها غير ما يبطن ، أو ينخدع في زعمه وهو غافل
عن معناه

خذ لذلك مثلاً علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على على

ليطلبوه بدم عثمان ، وهم لم يدافعوا عنه في حياته بعض ما دفع على عنه . وقد كان عثمان كثيراً ما يقول : « ويلي من طلحة . أعطيته كذا وكذا ذهباً وهو يروم دى . . . اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه » . . . وساء ظن الناس بنقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم مقتله يرمى الدار ويقود بعض الثائرين إلى الدور المجاورة ليهبطوا منها إلى دار عثمان ، وهو حديث يفتقر إلى السند الوثيق ، ولكنه ينم على ظن الناس بصداقة طلحة للخليفة المقتول

ونخذ لذلك مثلاً حجة معاوية حين علل ثورته باتهام على في دم عثمان وعلل اتهامه لعل بتقصيره في القود من الثائرين ، وهم ألوف يحملون السلاح وهو لم يسكن بعد إلى سلطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلحين . فإذا صنع معاوية بقاتلي عثمان حين صار الملك إليه ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح القتال ؟ إنه اتبع علياً فيما صنع وأنى أن يذكر الثأر المقيم المقعد وقد ذكروه به وألحفوا في تذكيره . ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان صبيحة عائشة بنته وهي تبكي : « يا ابنه أخي . إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حلماً تحت غضب ،

وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره . فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ولا ندرى أعلينا نكون أم لنا . ولأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين »

أؤخذ لذلك مثلاً علة عمرو بن العاص وقد كان أول التناحيين لعثمان بالاعتزال ، بل كان يخطب لعثمان ليسترضي الناس وعمرو يصبح به من صفوف المسجد : « اتق الله يا عثمان فإنك قد ركبت أموراً وركبتها معك . فتب إلى الله نتب . . . » ثم ترك عثمان في المدينة بين المؤتمرين به يفضي إلى فلسطين وسمع وهو يقول : « والله إنى كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان »

فكل علة للثورة على خلافة عليّ فهي تعلل موضوع ينخدع به قائله أو ينخدع به غيره . إلا تلك العلة التي طوت فيها جميع العلل ظاهرها وخافيتها وصريحها ومكذوبها ، وهي الخلاف بين مبادئ الخلافة الدينية ومبادئ الدولة الدنيوية ، وضرورة الفصل بين هاتين الخطتين وإن كان في ظاهره فصلاً بين رجلين

واتبع على من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها ، فمن اللحظة الأولى أخذ في تجنيد بني الخلافة الدينية التي لا قوة له بغيرها

فغزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة وتمغروا
بالدنيا وطمعوا وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين :
وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء المتحرجين
والحفاظ الغير على فضائل الدين :

ورد القطائع التي وزعتها بطانة عثمان بين المقرين
وذوى الرحم ، فصرفها عن وجوهها التي جعلت لها من
إصلاح المرافق وإغاثة المفتقرين إليها على شرعة الإنصاف
والمساواة

. ورجع إلى خطة أبي بكر وعمر في تجنب الصحابة
الطامحين إلى الإمارة فتنة الولايات ، مخافة عليهم من غوايتها
وإبعاداً لهم من دسائس الشيع والعصبيات . فلما طالبه طلحة
والزبير بولاية العراق واليمن قال لهما : بل تبقيان معي لأنس
بكما ، وسأل ابن عباس : ما ترى ؟ فأشار بتولية الزبير
البصرة وتولية طلحة الكوفة. قال علي : ويحك . « إن العراقيين
بهما الرجال والأموال . . . ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان
السفيه بالطمع ، ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان
على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملاً أحداً لضررت
أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر من
حرصهما على الولاية . لكان لي فيهما رأى »

نعم إن هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبي المنفعة

الدينيوية على يديه ، ولكن السياسة الأخرى كانت تغضب أنصاره ولا تضمن له رضى المنافسين ودوامهم على الرضى والوفاق بينهم فى تأييده

ولم تـمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه . فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا فى عهد عثمان ، وجميع الطامعين فى الانتفاع بالولاية والأموال العامة وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير

فحشدوا جموعهم إلى البصرة وصحبهم السيدة عائشة لأنها كانت ترغب فى خلافة طلحة . لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من قبل عثمان ولما يزل قائماً بالخلافة ، فقالت له : يا ابن عباس . أنشد الله فإنك قد أعطيت لساناً إزعيلاً — أى ماضياً — أن تخذل عن هذا الرجل — تعنى عثمان — وأن تشكك فيه الناس . فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم . وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه . فأجابها ابن عباس : يا أمه ! لو حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا — أى على — ...

فقلت : إيهأ عنك . إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك .

فلما بويع عليّ في المدينة لم تكن من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه وبين خصومه ، ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبي عليه السلام في مسألة الإفك التي قيل إنه أشار فيها بتطليقها ، فخرجت إلى البصرة مع المطالبين بثأر عثمان ، وكانت هنالك وقعة الجمل التي سميت بهذا الاسم لاحتدام القتال فيها حول جملها وهودجها . فانتصر عليّ وقتل الزبير ومات طلحة بجرح أصابه في المعركة ، وحسم القتال بالصالح بين الفريقين في الحجاز والعراق

على أن هذا النصر العاجل لم يخل من آفة تكدره وتنذر بالمخاوف التي يوشك أن يلقاها عليّ في حربه لخصومه الباقين بعد موت طلحة والزبير وأقواهم معاوية بن أبي سفيان صاحب الشام

فقد كشفت وقعة الجمل عن مصاعب القيادة في جيش من المتعمردين والمتذمرين . فإنهم يستحمسون في عقيدتهم وهي فضيلة من فضائل الحيوش المقاتلة ، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد والتمادي في اللدد وإعجال قائدهم عن إنعام الروية وانتظار الفرص المؤاتية

فقد كان عليّ يميل — كدأبه — إلى مفاتحة الخارجين عليه في المهادنة أو المصالحة ، وكان معه جماعة السبئية

أتباع عبد الله بن سبأ — وهم أخلص الناس له وأغيرهم عليه ، ولكنهم لفرط غيرتهم ولددهم في عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضاء على خصومه ، ولم يقبلوا التوسط في الصلح دون الغلبة التي لا هوادة فيها . فدهموا القوم وأوقدوا جذوة الحرب قبل أن يفرغ على من حديث المهادنة والتقريب بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه

وكانت هذه أولى العثرات الكبار التي أعثرته بها حماسة المتمردين والمتدمرين في جيشه ، ولم تزل تتعاقب وتتفاقم عليه حتى منى بالعثرة التي لا تقال ، وكان ذلك في وقعة صفين فإنه نظر بعد غلبته في العراق فلم يجد أمامه خصما يقف في طريق الخلافة إلا جيش معاوية بالشام ، فعمد معه إلى خطته التي جرى عليها مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوة ، ونعنى بها خطة المسالمة والبدء بالإقناع ، فطالت المراسلة منه إلى معاوية ومن معاوية إليه ، وفي مثل واحد منها ما يغنى عن كثير

كتب إلى معاوية بعد وقعة الجمل وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة :

« سلام عليك . أما بعد فإن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام ، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه . فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن

يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى وإن خرج عن أمرهم رده إلى ما خرج عنه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً . وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتها بعد ما أعذرت إليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله ، وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون فإن أحب الأمور إلى قبلك العافية ، وقد أكثرت فى قتلة عثمان ، فإن رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ثم حاكت القوم إلى حملتك وإياهم على كتاب الله . وأما تلك التى تريدها - يعنى الخلافة - فهى خدعة الصبي عن اللبن . ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدننى أبرأ قریش من دم عثمان ، واعلم أنك من الطلقاء^(١) الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون فى الشورى، وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والحجرة ، فبايعه ، ولا قوة إلا بالله » فرد عليه معاوية بما يلي :

« سلام عليك . أما بعد فلعمري لو بايعك الذين ذكرت وأنت برىء من دم عثمان لكنت كأبى بكر وعمر

(١) أطلق معاوية وأبوه من الأسر يوم فتح مكة

رعثمان . ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان . فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين . وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم ، فلما فارقه كان الحكام على الناس أهل الشام ، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طاحنة والزبير ، إن كانا بايعاك فلم أبايحك أنا . فأما فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاست أدفعه . . . »

ومن رد معاوية هذا تبدو النية الواضحة في فتح أبواب الخلاف واحداً بعد واحد، كلما أغلق باب منها بقي من ورائه باب مفتوح لا ينتهى الخلاف بإغلاقه، فتسليم قتلة عثمان لا يكفي، لأن علياً نفسه متهم بالإغراء والتخذيل، وبراءة علي من هذه التهمة لا تكفى، لأن المرجح بعد ذلك إلى الشورى والنظر في البيعة من جديد. وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفى، لأن الحق قد خرج منهم إلى أهل الشام، وهم الحكام على الناس . . . لأنهم يحكمون لمعاوية ولا يحكمون لغيره، ومن ثم بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عندما يقال باللسان غير ما يحول في الصدور

وزحف على من الكوفة إلى صفين، ووجد جيش معاوية على الماء فنحاه عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال

وبدأت العثرات من ثم في كل خطوة يخطوها للسلام أو للقتال . فلا يتحضر فريق من أنصاره للحرب حتى يشبه فريق آخر يحرمها ولا يقول بوجوبها ، وتحاجز القوم نيفاً وثمانين فرقة . وتصارولوا في وقعات شتى غامرت بها طائفة من طائفة من هنا ، وقلما اشتبك فيها الجيشان في جامعة حتى كانت وقعة الهريير وحاققت الهزيمة بجيش معاوية وقيل إنه هم بالفرار ، وإذا بالمصاحف ترفع على الخراب من قبل جيش الشام ، وإذا بالعترة الكبرى التي لا خطوة بعدها في طريق فلاح . فلن علينا نظر حوله فإذا بجيشه يوشك أن يقتتل فيما بينه نزاعاً على القتال أو إلقاء السلاح ، وأن معاوية لقي غنى عن كفاح قوم لا يتفقون على كفاحه . فله منهم سيوف ورماح مشرعة لنصره شاعوا أو لم يشاعوا وسيكفونه مؤنة الحرب حتى يتفقوا بينهم على حربه ، وهيهات !

* * *

ولو كانت آفة الطاعة في جيش على مقصورة على اجتهاد القراء والحفاظ وتعجل الغلاة والمتمردين لكان في ذلك وحده ما يكفي لإفساد التدبير واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله . إذ لا يستغنى القائد في ميدان الحرب ولا في ميدان السياسة عن الكتمان والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب الطوارق والمناسبات . فإذا كان في كل عمل من أعماله عرق

لأجتهاد أصحاب الفتاوى ، وكان أصحاب الفتاوى يفترون
عشرين وجهة في كل حركة من حركات الجيش ، فليست
له خطة تكتم ولا خطة تنفذ . وليس عجيباً بعد ذلك أن
ينهزم في ميدان القتال شر هزيمة يبتلى بها مقاتل .

ولكن الآفة . مع هذا لم تكن كلها في اجتهاد الحفاظ
وتعجل الغلاة . بل كان في الجيش أناس يخنون عهده
ويشغبون عليه ويبدون من أعمالهم أنهم مسخرون لعدوه
كارهون لانتصاره ، فإن لم يكونوا كذلك فالأمر الذي لا شك
فيه أنهم كانوا يعملون وهم عامدون وغير عامدين شر ما يعمل
الخائن الخبيث الذي يتحين الفرص للعناد والشقاق وإفشاء
الخلل والخذلان في أخرج الأوقات

وأدهى من ذلك أنه لم يكن قادراً على زجرهم والتنكيل
بهم ، لأن الجيش الذي يوجد فيه من يحرم حرب العدو
لن يعد أناساً يحرمون حرب النصير المقيم على ظاهر الطاعة ،
وليس لك بيئة قاطعة عليه

ومثل من ذلك أيضاً يغنى عن أمثال كثيرة ، وهو مثل
الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلفهم أن ينصر
حزباً على حزب لو خلصت نيته وبرئت شيمته من الثقل
والغدر بأصحابه

طمع هذا الرجل إلى الملك بعد موت النبي عليه السلام ،

فدعا قومه أن يتوجه وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوَّصر في حصنه أياماً ويئس من الغلبة فاستسلم على أن يصاب دمه ودم عشرة من أخصائه، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالعشرة الذين اختارهم إلى أبي بكر رضى الله عنه ، فقبل توبته وزوجه أخته أم قروة . فاما نشبت الفتنة بين عليّ ومعاوية كان هو من حزب عليّ يتطلع للفرصة السانحة ثم زحف عليّ رضى الله عنه إلى صفين فكان الأشعث أول المندفعين إلى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء . وجاء عليّاً يقول : « يا أمير المؤمنين ؛ أيمعننا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا ؟ ولتني الزحف إليه فوالله لا أرجع أو أموت » ، ولكنه عاد إلى المسألة بعد أن وضع النصر في ليلة الحرير فخطب في قومه من كندة قائلاً :

« . . . قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي ، وما قد فني فيه من العرب ، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيتم مثل هذا اليوم قط . ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن توافقتنا غداً لأنه لفنيت العرب وضيعت الحرمات . أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحرب ولكني رجل مسن أخاف على النساء والذراري غداً إذا فنينا »

ثم ذهب إلى عليّ رضى الله عنه بعد رفع المصاحف

قال له : « ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم
على ما دعوهم إليه من حكم القرآن . فإن شئت ، أتيت معاوية
فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل »

ولقي معاوية فسأله : يا معاوية ! لأى شىء رفعتم هذه
المصاحف ؟

قال : « لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل في
كتابه . تبعثون منكم رجلا ترضون به ونبعث منا رجلا
ثم نأخذ عليهما أن يعملما بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع
إما اتفقا عليه »

فقال الأشعث : هذا الحق ! وعاد إلى عليّ ينادي
بالتحكيم ويختار له هو وأنصاره رجلا ينوب عن عليّ ، وعليّ
الأيضا . وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترأوا على أمير
المؤمنين فلم يبالوا أن يجبهوه بالقول السيئ منذرين متوعدين :

« يا علي ! أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه ،
وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان .
إنه عرض علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل فقبلناه .
والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك »

وألحوا عليه أن يرد قائده الأشتر النخعي من ساحة الحرب ،
وإلا اعتزلوه أو قتلوه . فقبل التحكيم وهو كاره ، واختار أهل الشام
عمرو بن العاص فقال الأشعث : فإننا قد رضينا بأبى موسى الأشجري

قال عليّ : إنه ليس لي بثقة . قد فارقتي وخذل الناس عني ، ثم هرب مني حتى آمنت به بعد أشهر . ولكن هذا ابن عباس نوليّه ذلك

قالوا : لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ليس إلى واحد منكما بأدنى إلى الآخر

قال : فإني أجعل الأشر

قال الأشعث وهو ينفس على الأشر مكانته وبلاء من قبل : وهل سعر الأرض غير الأشر ؟ أو قال : وهل نحن إلا في حكم الأشر ؟

فلما رأى إصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال : فقد أبيتم إلا أبا موسى ؟ قالوا : نعم ! قال : فاصنعوا ما بدا لكم ! ...

* * *

فهذا رجل من الزعماء المطاعين في جيش عليّ لم يدع من وسعه شيئاً لتغليب حزب معاوية على حزبه ، واستكثر عليه أن يكون الحكم الذي يختاره نصيراً له مؤمناً بحقه وصحة رأيه . ولا طائل في البحث عن هذا الخذلان الصريح أكان هو الطمع في الملك بعد فشل على أم النعمة على الأشر النخعي في مكانته وبلائه أم التواطؤ بينه وبين معاوية على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة ؟ فإنما النية الخبيثة ظاهرة وإن استترت العلة ، وأياً كانت العلة الخفية فقد صنع الرجل

غاية ما استطاع لتغليب حزب معاوية وخذلان الحزب الذى هو فيه

قال على^١ يصف قسمته من الأنصار وقسمته من النوازل والعثرات : « لو أحبنى جبل لتهافت » . وقال يصف أنصاره : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهى الصم الصلاب وفعلكم يطمع فيكم الأعداء . . . ما عزت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأضاليل دفاع ذى الدين المطول . . . أى دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ ! المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيبي ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناضل^(١) ، أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ، ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طبكم ؟ القوم رجال أمثالكم ، أقولا بغير علم ؟ وغفلة من غير ورع ؟ وطمعاً فى غير حق »

ثم اجتمع الحكمان بدومة الجندل التى وقع عليها الاختيار لتكون وسطاً بين العراق والشام ، ولم يكن قرار الحكامين خافياً على من عرفوا أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص . فإن أبا موسى لم يكتف قط أن السلامة فى اجتناب الفريقين والقعود عن القتال . فليس أيسر من إقناعه بخلع صاحبه وخلع

(١) الأفوق هو السهم المكسور فى موضع الوتر والناضل العارى من النصل

معاوية على السواء . ثم يرجع الرأي إلى عمرو بن العاص في إقرار هذا الخلع أو الاحتيال فيه بالحيلة التي ترضيه

إلا أن الدهاة من العرب كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذي أنابه عنه . ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبة الذي اعتزل الفريقيين من مطلع الفتنة إلى يوم التحكيم . فلما اجتمع الحكمان علم أنها الحولة الأخيرة في الصراع فخرج عن عزلته ودنا ليستطلع الأمور على سنة الدهاة من أمثاله ، إذ يتنصمون الريح قبل هبوبها ولا يقلقون أنفسهم بمهبها قبل أوانها . فلقى أبا موسى وعمرو بن العاص ثم ذهب إلى معاوية وهو مشغول البال بطول الاجتماع بين الحكيمين واضطراب الظنون في وراء هذا الإبطاء المريب . فقال له وهو يرى اشتغال باله قد أثبتك بخير الرجلين قال معاوية : وما خبرهما ؟

قال المغيرة : إني خلوت بأبي موسى لأبلو ما عنده ، فقلت : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس في بيته كراهية للدماء ؟ فقال : أولئك خيار الناس ، خفت ظهورهم من دماء إخوانهم وبطونهم من أموالهم . فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص فقلت : يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟ فقال أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقاً وإنما ينكروا باطلا

ثم عقب المغيرة قائلاً : أنا أحسب أبا موسى خالماً صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه في عبد الله بن عمرو بن الخطاب ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي عرفته ، وأحسبه سيّطابها لنفسه أو لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه

وقد أحسن المغيرة حزره نقل الحرف بالحرف في تقدير نية الرجلين ، فإنهما ما اجتماعاً هنية حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له : يا عمرو ؟ هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله ؟

قال : وما هو ؟ قال : نولي عبد الله بن عمرو فإنه لم يدخل نفسه في شيء من هذه الحروب .

فراغ عمرو قليلاً يحاول أن يلتقي في روع صاحبه أنه يريد معاوية ، ثم عاد يسأله : فما يمنعك من ابني عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟ فأوشك أبو موسى أن يجيبه لولا أنه قال : إن ابنك رجل صدق ولكنك غمسته في هذه الحروب غمساً . . .

وتكرّر بينهما هذا القول وأشباهه في كل لقاء ، وطفقا يبدئان منه ويعيدان إليه بعد كل جدال ، حتى وقرّ في خلد الأشعري أن خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره . فتواعدا إلى يوم يعلنان فيه هذا القرار

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد : « ... أيها الناس .
 إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم
 لشعبها من أمر قد أجمع رأي ورأي عمرو عليه ، وهو أن
 نخلع علياً ومعاوية ، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم
 من أحبوا عليهم ، وإنى قد خلعت علياً ومعاوية . فاستقبلوا
 أمرهم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً »

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد : « ... إن هذا قال
 ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت
 صاحبي معاوية ، فإنه ولي عثمان بن عفان رضى الله عنه
 والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه »

فغضب أبو موسى وصاح به : ما لك لا وفقك الله . غدرت
 وفجرت ، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو
 تركه يلهث .

فابتسم عمرو وهو يقول : « إنما مثلك كمثل الحمار يحمل
 أسفراً ... »

كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين ، وهما
 يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه

وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة
 وبأن اجتماع الحكيم لم يفض إلى اتفاق بين الحكيم ،
 فعاد الخلاف إلى ما كان عليه ، إلا أنه استشرى واحتدم بعد

قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين
للتحكيم

فقد اجتمعوا وأبرموا فيما بينهم « . . . أن هذين الحكمين
قد حكما بغير ما أنزل الله وقد كفر إخواننا حين رضوا بهما
وحكموا الرجل في دينهم ونحن على الشخص من بين أظهرهم ،
وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق »
ونخرجوا وعلى " يأبى قتالهم حتى يئأس من توبتهم ، ولقيهم
بالجيش فأثر أن يأتاهم مناقشاً قبل أن يلقاهم مقاتلاً ،
واقترح عليهم أن يخرجوا إليه رجلاً منهم يرضونه ليسأله ويحجبه
ويتوب إن لزمته الحجة ويتوبوا إن لزمهم . فأخرجوا إليه
إمامهم عبد الله بن الكواء

قال عليّ : ما الذي نقيم على بعد ضاكم بولايتي
وجهادكم معي وطاعتكم لي فهلا برثتم مني يوم الجمل ؟

قال ابن الكواء : لم يكن هناك تحكيم
قال عليّ : يا ابن الكواء ويحك . أنا أهدى أم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ؟ قال ابن الكواء : بل رسول الله صلى الله
عليه وسلم

قال عليّ : فما سمعت قول الله عز وجل : « قل تعالوا
ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم » أكان
الله يشك أنهم هم الكاذبون ؟ قال : إن ذلك احتجاج

عليهم ، وأنت شككت في نفسك حين رضيت بالحكمين فنحن
أحرى أن نشك فيك

قال : وإن الله تعالى يقول : « فأتوا بكتاب من عند الله
هو أهدى منهما أتبعه »

قال ابن الكواء : ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم . ثم
قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا : « إنك صادق
في جميع قولك غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين »

قال علي : ويحك يا ابن الكواء . إني إنما حكمت أبا موسى
وحكم معاوية عمرأ

قال ابن الكواء : فإن أبا موسى كان كافراً

قال علي : متى كفر ؟ أحين بعثته أم حين حكم ؟

قال ابن الكواء : بل حين حكم

قال علي : أفلا ترى أنني إنما بعثته مسلماً فكفر في
قولك بعد أن بعثته . . . أرايت لو أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم بعث رجلاً من المسلمين إلى ناس من الكافرين
ليدعوهم إلى الله (١) فدعاهم إلى غيره هل كان على رسول الله
صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء ؟
قال : لا

(١) وقد حدث هذا في عهد النبي عليه السلام إذ أوفد نهاراً إرجاء
ليهدى قوم مسيلمة فانقلب هناك مبشراً بدينه

قال: ويحك . فما كان على أن ضل أبو موسى ؟ أفیحل لكم بضلالة أبي موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس ؟

فعلم الخوارج أن صاحبهم ليس بند لعلی في مجال نقاش ، فكفوه عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق علی في حجته وقصده ، لولا أنهم قوم قهرتهم بالحاجة العناد كما تقهر أمثالهم من المهوسين الذين يجدون في المضى مع العناد لذة لا يستمرثونها من الحق والمعرفة . فردوا على الشقاق وأصروا على تكفير علی وأصحابه وأن يعاملوهم في الحرب والسلام معاملة الكفار

واستبقي علی بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة . فرفع في الساحة راية ضم إليها ألفى رجل ونادى : من التجأ إلى هذه الراية فهو آمن

ثم قال لأصحابه : لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم . فصاح الخوارج صيحتهم : « لا حكم إلا لله وإن كره المشركون » وهجموا هجمة رجل واحد . وتلقاهم علی وأصحابه لقاء من نفد صبره ووغر صدره . فما هي إلا ساعة حتى قتل معظم الخوارج وبقى منهم نحو أربعمائة أصيبوا بجراح وغجزوا عن القتال ، فأمر بهم علی فحملوا إلى عشائرهم لينظروا من فيه رمق فيلذكوه بعلاج

وأراد المسير إلى الشام ليلقى بها جيش معاوية
فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى كما تصدى
له في كل فرصة سانحة للغلبة ، وقال له على مسمع من الناس :
يا أمير المؤمنين . نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة
رماحنا ، فارجع بنا إلى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل
أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا ، فإنه أوفى
لنا على عدونا

وتسلل الجند من معسكرهم ، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة
منهم ، وأيقن على أن القوم مارقون من يده ، ولا طاعة له
عليهم إذا دعاهم بعدها لقتال

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه ، وأعانه طلاب
المنافع عامدين ، وأعانه الخوارج غير عامدين ، فحاربوا
عليه ولم يحاربوه ، وطلبوا التوبة من على ولم يطلبوها منه ،
واستمر هو في إنفاذ البعوث والسرايا إلى كل موضع آتس منه
غرة وظن بزعمائه موجدة أو سامة . فلم تنقض ستان حتى
كانت معه مصر والمدينة ومكة ، وبقى على في أرباض الكوفة
يائساً منعزلاً عن الناس ، يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه ،
ويوحس شراً من أقرب المقربين إليه ، وانتهى بقبول المهادنة
بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولعواية الشام ،
ويكفها السيف عن هذه الأمة ، فلا نزاع ولا قتال

* * *

وبقيت في كنانة الأقدار مصادفة من هذه المصادفات التي يخيّل إليك وأنت تتعقبها أنها تجمعت منذ الأبد ليبوء على بنقائض الموقف كله ويظفر خصومه بتوقيقات الموقف كله ؛ فشاعت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة ، على قتل ثلاثة ، فيذهب هو وحده ضحية هذه المكيدة العاجلة ، ويفلت زميلاه فيها : معاوية وعمرو بن العاص

* * *

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبدالله وعمرو ابن بكر التميمي وهم من غلاة الخوارج الموتورين ، فتذاكروا القتلى من رفاقهم وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار — أو أئمة الضلالة في رأيهم — وهم علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص !

فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم علي بن أبي طالب
وقال البرك : أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان
وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص
وإن ضغينة الثأر لحافز أي حافز وإن تهوس العقيدة
المثير أي مثير
وكان للمتآمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافزين

يغنى عن مزيد من التحريض على القتل والانتقام
ولكن المصادفة العجيبة هي التي شاءت أن تشهد عزيمة
ابن ملجم بحافز ثالث لعله يمضي حين ينبو هذان الحافزان
الماضيان ، وهو حافز من الغرام الظامئ لا يرويه إلا دم
ذلك الشهيد الكريم

فلن المرء قد ينمى نائرة الحقد ، وقد يمارى نفسه فيما
تفرضه العقيدة ولكنه إذا كان عاشقاً مخبولاً يستنجزه الوعد
معشوق مسلط عليه ، فهو مأسور زمامه في يدي غيره ،
وليس في يديه

وكان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرباب قتل أبوها
وأخوها وبعض أقربائها في معركة الخوارج ، وكانت توصف
بالجمال الفائق والشكيمة القوية ، وتدين بمذهب قومها فوق
ما في جوانحها من لوعة الحزن على ذويها ، فلما خطبها ابن
ملجم لم ترض به زوجاً إلا أن يشنى لوعتها . قال : وما يشفيك ؟
قالت : ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة ، وقتل على بن
أبي طالب

قال : أما قتل على فلا أراك ذكرته لى وأنت تريدني ..
قالت : بل التمس غرته . فإذا أصبت شفيت نفسك ونفسي
وبهناك العيش معي وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا
ووينتها وزينة أهلها

وخرج الثلاثة متواعدين إلى ليلة واحدة يقتل كل منهم صاحبه في ذلك الموعد

فأما عمرو بن العاص فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلي بالناس . فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمراً فقتله . فقال عمرو : أردتني وأراد الله خارجة ، وأمر بقتله

وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله وقد خرج الفداة للصلاة فوقعت الضربة على أليته . وقيل إن الطعنة مسمومة لا يشفيها إلا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ورضي انقطاع النسل وهو يقول : في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني ، وأمر بالرجل فقتل حينه

وأما علي فضربه ابن ملجم في جبينه بسيف مسموم وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام وهو يحنر أولياء دمه من المائلة ويقول لهم : « يا بني عبد المطلب . لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين . ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلي » . . . انظر يا حسن ؟ إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة . ولا تمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور »

وهذه خاتمة فاجعة ، ننظر في كل فرض من فروضها فلا نخلوها من المصادفة السيئة التي لا تلتقى تبعثها على أحد بعينه فهي المصادفة السيئة مهما تلتمس لها علة من علل التاريخ ترجع بنا في آخر الأمر إلى علل المصادفات التي لا تقبل التعليل

وشيء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجعة كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائها إلى ما بعد انتهائها وذلك هو النسيج الإنساني النابض الذي يتخلل حياة على في لحمها وسداها وفي تفصيل أجزائها وجملة فحواها . فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة إلا وهي معرض حافل للعواطف الإنسانية برمتها ، تلتقي فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والإيمان والسباحة ، وتشتبك فيه بمطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم ذلك الاشتباك الذي يخلق الشعراء خلقاً في القصص والملاحم ، فلا يحكمونه بعض لإحكام الواقع الملموس في سيرة الإمام

وهذه مزية على بين خلفاء الإسلام قاطبة . ينفرد بها لأنه انفرد بمثال من النفوس ومثال من العصور ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادفات في الأجيال الطوال ، ولا تحسن أن تؤلفه بمشيتها في كل جيل تلك حياة حي ، وذلك مصرع شهيد .

سياسته

تسرى في صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فم ، ويتوارثها جيل عن جيل ، ويتخذها السامعون قضية مسلمة ، مفروغاً من بحثها والاستدلال عليها ، وهي في الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال ، ولم تتجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال ، ثم صقلتها الألسنة فعر عليها بعد صقلها أن تردّها إلى المهجر والإهمال

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم إن علياً بن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة وقد شاع هذا الرأي في عصر على بين أصحابه كما شاع بين أعدائه ، وعزز القول به أنه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه ، وأنه لم ينجح بعد هذه المخالفة في معظم مساعيه ، فكان من الطبيعي أن يقال إنه منى بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاة ، وإنه هو لم يكن من أصحاب الخدع الناجحة في الحرب أو السياسة

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه ، في عصره أو بعد عصره ، أن يسأل نفسه : أكان في وسع على أن يصنع غير ما صنع ؟

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك :
 هبه استطاع أن يصنع غير ما صنع فما هي العاقبة ؟
 وهل من المحقق أنه كان يفضى بصنيعه إلى عاقبة أسلم من
 العاقبة التي صار إليها ؟

لم نعرف أحداً من ناقديه خطر له أن يسأل عن هذا
 أو ذاك ، مع أن السؤال عن هذا وذاك هو السبيل الوحيد إلى
 تحقيق الضواب والخطأ في رأيه ورأى مخالفه ، سواء كانوا
 من الدهاة أو غير الدهاة

وهذه هي المسائل التي خالفه فيها الدهاة ، أو خالفه
 فيها نقدة التاريخ الذين نظروا إليها من الشاطئ ، ولم ينظروا
 إليها نظرة الربان في غمرة العواصف والأمواج . فالأخذ التي
 من هذا القبيل يمكن أن تنحصر في المسائل التالية ، وهي :
 عزل معاوية ومعاملة طلحة والزبير وعزل قيس بن سعد
 من ولاية مصر وتسليم قتلة عثمان وقبول التحكيم وقبول الخلافة
 وهي كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من
 كلا الطرفين

* * *

قليل في مسألة معاوية إن علياً رضى الله عنه خالف
 فيها رأى المغيرة وابن عباس وزياد بن حنظلة التميمي ، وهم
 جميعاً من المشهورين بالحنكة وحسن التدبير

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له : « إن لك حق الطاعة والنصيحة ، وإن رأى اليوم تحرز به ما في غد ، وإن الضياع اليوم تضيع به ما في غد . أقرر معاوية على عمله ، وأقرر ابن عامر على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت » فأبى وقال : « لا أداهن في ديني ولا أعطى الدنية في أمري »

قال المغيرة : فإن كنت أبيت على " فأنزع من شئت واترك معاوية ، فإن في معاوية جرأة ، وهو في أهل الشام يستمع له ولك حجة في إثباته . إذ كان عمر قد ولاه الشام فقال على : لا والله . لا أستعمل معاوية يومين ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له ، لما علم برأى المغيرة : إنه نصحك . قال على : ولم نصحنى ؟ قال : لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فتي تشبههم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق

ثم مضت الأيام وشاع بين أهل المدينة أن معاوية منتقض على الإمام ، فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمي يعلم ما عنده من أمر هذا الانتقاض ، وكان زياد من جلسائه فقال له الإمام : تيسر.

قال زياد : لأى شيء ؟ قال : تغزو الشام .
فقال زياد : الأناة والرفق أمثل ، واستشهد بقول الشاعر :
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
فتمثل على :
متى تجمع القلب الذكى وضارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم
فخرج زياد إلى الناس : وهم يسألونه : ما وراءك ؟
فأجابهم : هو السيف يا قوم !

* * *

تلك آراء المشيرين من ذوى الحنكة ، وذلك ما عمل
به الإمام وارتضاه . فأيهما على خطأ وأيهما على صواب ؟
سبيل العلم بذلك أن نعلم أولاً : « هل كان الإمام مستطيعاً
أن يقر معاوية فى عمله بالشام ؟ » وأن نعلم بعد هذا « هل
كان لإقراره أدنى إلى السلامة والوفاق لو أنه استطاع ؟ »
وعندنا أن الإمام لم يكن مستطيعاً أن يقر معاوية فى
عمله لسببين : أولهما أنه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة ،
وكان لإقراره وإقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على
حكومة عثمان فى رأى على وذوى الصلاح والاستقامة بين
الصحابية ، وكثيراً ما اعتذر عثمان من إقرار معاوية بأنه من
ولاة عمر بن الخطاب فكان على لا يقبل هذا العذر ولا يزال
يقول له : إنه كان أخوف لعمر بن الخطاب من غلامه « يرفأ »

ولكنه بعد موت عمر لا يخاف
 فلماذا أقره وقد ولى الخلافة فكيف يقع هذا الإقرار عند
 أشياءه ؟ ألا يقولون إنه طالب حكم لا يعنيه إذا وصل إلى
 بغيته ما كان يقول وما سيقوله الناس ؟
 وإذا هو أعرض عن رأيه الأول فهل في وسعه أن يعرض
 عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج
 من حكم عثمان إلى حكم جديد ؟

إن هؤلاء الثائرين أشفقوا من نية الصلح مع طلحة والزبير
 في وقعة الجمل فبدأوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به ، بل هجموا
 على أهل البصرة وهم مأمورون بالهدنة والأناة . فكيف تراهم
 يهدأون ويطيعون إذا علموا أن الولايات باقية على حالها ،
 وأن الاستغلال الذي شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه ؟
 وندع هذا ونزعم أن إقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع .
 فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق ؟
 كلا . على الأرجح ، بل على الرجحان الذي هو في

حكم التحقيق

لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل وال يظل والياً طول
 حياته ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول إلى ما وراءه ،
 ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها
 له ولأبنائه من بعده . فجمع الأقطاب من حوله واشترى

الأنصار بكل ثمن في يديه ، وأحاط نفسه بالقوة والثروة ، واستعد للبقاء الطويل ، واغتنام الفرصة في حينها فأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره ؟

ولأنما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها وإلا ضاع . منه الملك وتعرض يوماً من الأيام لضبياع الولاية . وما كان مثل معاوية بالذى يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور ولو على احتمال بعيد . فإذا تراه صانعاً إذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلّ وتبرئته إياه من دم عثمان ؟

إنما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل الإرجاء وإذا كان هذا موقف عليّ ومعاوية عند مقتل عثمان فإذا كان عليّ مستفيداً من إقراره في عمله وتعرّض نفسه لغضب أنصاره ؟

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من عليّ ، لأنه كان يغتم به حسن الشهادة له وتزكية عمله في الولاية ، وكان يغتم به أن يفسد الأمر على عليّ بين أنصاره ، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة الإمام .

* * *

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير في مسألة معاوية وولاية عثمان على الأمصار ؛ لأن الرأي الذى عمل به الإمام معروف ، والآراء التى تخالفه لا تعدو واحداً

من ثلاثة : كلها أغمض عاقبة وأقل سلامة وأضعف ضماناً
من رأيه الذى ارتضاه

فالرأى الأول أن يوليها العراق واليمن أو البصرة والكوفة ،
وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأى فأنكره الإمام لأن
« العراقيين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكوا رقاب الناس
يستميلان السفهية بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان
على القوى بالسلطان . . . »

ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية، وقد استفادا
من إقامة الإمام لهما فى الولاية تركية يلزمانه بها الحجة ويثيران
بها أنصاره عليه

والرأى الثانى أن يوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل ،
وهو لا ينجح فى الوقعة بينهما إلا بإعطاء أحدهما وحرمان
الآخر . فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة السانحة ،
ومن حرمه لا يأمن أن يهرب إلى الأثرة كما هرب بغيه ، فيذهب
إلى الشام ليساوم معاوية أو يبقى فى المدينة على ضغينة
مستورة

على أنهما لم يكونا قط متفقين حتى فى مسيرهما من مكة
إلى البصرة ، فوقع الخلاف فى عسكرهما على من يصلى بالناس ،
بلولا سعى السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من
بطريق خصمين متنافسين

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين ، فانهزما بعد أيام قليلة ، وخرج الإمام من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة ، ولو بقية على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة

والرأى الثالث أن يعتقلهما أسيرين ولا يبيح لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألاه الإذن بالمسير إليها ثم خرجا منها إلى البصرة ليشنا الغارة عليه

والواقع أن الإمام قد استراب بما نوياء حين سألاه الإذن بالسفر إلى مكة . فقال لهما : « ما العمرة تريدان وإنما تريدان الغلرة »

ولكنه لم يجبسهما لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم . وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه في السفر ، وتسلسل إلى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا ، ولو أنه حبسهم جميعاً لما تسنى له ذلك بغير سلطان قاهر ، وهو في ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان ، وأغلب الظن أن سواد الناس كانوا يعطفون عليهم ويتقمون حبسهم قبل أن تثبت له البينة بوزرهم . وما أكثر المتخرجين في عسكر الإمام من حبس الأبرياء بغير برهان ! لقد كان هؤلاء خلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم ، وخير له مع طلحة

والزبير وأمثالهما أن يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموه
فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره في عدله وحسن مجاملته لمن
حاسنوه ولم يصارحوه بعداء

وعلى هذا كله لم يكن الجيش الذي خرج من مكة إلى
البصرة بيئات من الخروج إليها إذا لم يصحبه طلحة والزبير .
فقد كانت « العثمانية » في مكة حزباً موفور العدد والمال . فهي
مسألة تلتبس فيها الطرائق ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها
أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التي سلكها الإمام وخرج
منها غالباً على الحجاز والعراق ، وما كان وشيكاً أن يغلب
عليهما لو بقي معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض
التي قدمناها

* * *

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر فهي غلطة من
غلطات الإمام يقل الخلاف فيها

لأن قيس بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر
وحمايتها ، وكان كفواً لمعاوية وعمرو بن العاص في الدهاء والمداورة ،
فعزله الإمام لأنه شك فيه ، وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه
بين أهل الشام وزعم أنه من حزبه والمؤتمرين في السر بأمره

وكان أصحاب علي يحرضونه على عزله وهو يستمهلهم
ويراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه . فعزله وهو

غير واثق من التهمة ، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة
 وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة ، فإن
 قيس بن سعد لم يدخل مصر إلا بعد أن مر بجماعة من حزب
 معاوية فأجازوه ولم يحاربوه وهو في سبعة نفر لا يحمله
 من بطشهم ، فحسبه حين أجازوه من العثمانية الهاربين إلى
 مصر من دولة عليّ في الحجاز

ولما بايع المصريون عليّاً على يديه بقى العثمانيون لا يبايعون
 ولا يهودون ، وقالوا له : أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر ، فأمهلهم
 وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الإسكندرية
 ثم أغراه معاوية بمناصرته والخروج على الإمام فكتب
 إليه كلاماً لا إلى الرفض ولا إلى القبول ، ويصح لمن سمع
 بهذا الكلام أن يحسبه مرواغاً لمعاوية أو يحسبه مترقباً لساعة
 الفصل بين الخصمين . إذ كان ختام كتابه إليه : « . . . أما
 متابعتك فأنظر فيها ، وليس هذا مما يسرع إليه ، وأنا كاف
 عنك فلا يأتيك شيء من قبل تكرهه ، حتى نرى وترى »

ثم اشتد في وعيده حين أنذره معاوية فقال : « أما قولك
 إني مالى عليك مصر خيلاً ورجلاً ، فوالله إن لم أشغلك بنفسك
 حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لذو جد والسلام »
 وأراد الإمام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية
 فأمر قيساً أن يحارب المتخلفين عن البيعة ، فلم يفعل

وكتب إليه : « ... متى قاتلناهم ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون والرأى تركهم »
 فتعاضم شك الإمام وأصحابه وكثر المشيرون عليه بعزل
 ليس واستقدمه إلى المدينة ، فعزله واستقدمه ، وتبين بعد
 ذلك أنه أشار بالرأى الصواب وأن ترك المتخلفين عن البيعة
 في عزلتهم خير من التعجيل بحربهم ، لأنهم هزموا محمد بن
 أبى بكر والى مصر الحديد ، وجرأوا عليه من كان يصانعه
 ويواليه

غلطة لا ريب فيها

ولكننا نبالغ على كل حال إذا علقنا بها الجرائر التى
 أصابت الإمام من بعدها ، وزعمنا أنه تقاعد عن إصلاحها
 في حينها ، كما تصلح الغلطات التى يساق إليها الساسة ،
 فإنما هى غلطة من تلكم الغلطات التى تضير والحوادث مولية
 وكلما تضير أو تعز على الإصلاح والحوادث مؤاتية . وقد عرف
 الإمام خطأه فقال لصحبه : « إن مصر لا يصلح لها إلا أحد
 رجلين : هذا الذى عزلناه والأشتر » ، وأنفذ الأشتر إلى مصر
 ليعيدها إلى طاعته فمات في الطريق ؟

والأقوال في موت الأشتر هذه الميئة الباغنة كثيرة ، منها
 أنه مات غيلة وأن معاوية أغرى به من دس له السم في
 غسل شربه وهو على حدود مصر فقضى نجه ، وروى

أن معاوية قال حين بلغه موته : « إن لله جنوداً من العسل »
 فإن صحّت الرواية واعتقد من اعتقد أنها من دلائل
 السياسة القوية عند معاوية فما لاشك فيه أن موت الأشتر لم
 يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الإمام . وأنه لا لوم
 على سياسته في اغتياله ، إن كان فيه سبب ثناء على سياسة
 الغيلة ، عند من يحمونها

ثم تأتي مسألة القصاص من قتلة عثمان التي كانت أطول
 المسائل جدلاً بين الإمام وخصومه فإذا هي أقصرها جدلاً مع
 براءة المقصد من الهوى وخلص الرغبة في الحقيقة

فقد طالبوه بالقود ولم يبايعوه ، مع أن القود لا يكون
 إلا من ولى الأمر المعترف له بإقامة الحدود
 وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة ومن هو الذى يؤخذ بدم
 عثمان من القبائل أو الأفراد

وأعتوه بهذا الطلب . لأنهم علموا أنه لا استطاع قبل أن
 تثوب السكينة إلى عاصمة الدولة ، وأعفوا أنفسهم منه - وهم
 ولاة الدم كما يقولون - يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت
 السكينة إلى جميع الأمصار

وقد تحدث الإمام مرة في أمر القود من قتلة عثمان فإذا
 بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم
 « كلهم قتلة عثمان » . . . فن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى
 الثأر له والقصاص من العادين عليه لقد كان هذا أقرب الطرق
 إلى ما أرادوا . يؤيدون ولى الأمر حتى يقوى على إقامة الحدود ،
 ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب لإنصاف

إلا أنهم طلبوا ما لا يجاب ، وما لم يكن من حقهم أن
 يطلبوه ، وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضي الله
 عنها . وقد روى عنها أنها قالت لما أخبرت ببيعة عليّ وهي
 خارجة من مكة : « ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر
 لعلى » تشير إلى السماء والأرض . . .

ثم عادت إلى مكة وهي تقول : « قتل والله عثمان مظلوماً ،
 والله لأطلبن بدمه »

ف قيل لها : ولم ؟ والله إن أول من أثار الناس عليه لأنت ،
 ولقد كنت تقولين : اقتلوا « نعثلاً » فقد كفر
 فقالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ،
 وقولى اليوم خير من قولى الأول »

وناهيك بالسيدة عائشة فى فضلها ومكانتها وتقواها ، فقل
 ما شئت فى المطالبين غيرها بهذا المطلب الذى لا يجاب ، والرضى
 أو الإرضاء مستحيل حين يكون الطالب من هذا القبيل

* * *

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم فيخيل إلينا من عجلتهم

إلى اللوم أنهم كانوا أول من يلومه ويفرط في لومه لو أنه
رفض التحكيم وأصر على رفضه ، لأنه لم يقبل التحكيم وله
مندوحة عنه

ولكنه قبله بعد إحجام جنوده عن الحرب وشك القتال
في عسكرهم خلافاً بين من يقبلونه ويرفضونه
-وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفاً وثمانين فرقة للقتال
لشكهم في وجوبه وذهاب بعضهم إلى تحريره
وبعد أن توعدوه بقتلة كقتلة عثمان وأحاطوا به يلجون عليه
في استدعاء الأشتر النخعي الذي كان يلاحق أعداءه مستحصداً
في ساحة الحرب على أمل في النصر القريب

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه في التحكيم وخطأوه في
قبول أبي موسى الأشعري على علمه بضعفه وتردده ينسون
أن أبا موسى كان مفروضاً عليه كما فرض عليه التحكيم في
لحظة واحدة ، وينسون ما هو أهم من ذلك وهو أن العاقبة
متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعري أو ناب عنه
الأشتر أو عبد الله بن عباس . فإن عمرو بن العاص
لم يكن ليخلع معاوية ويقر علياً في الخلافة ، وقصارى
ما هنالك أن الحكيم سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه
ورجعة الأمور إلى مثل ما رجعت إليه . وإن توهم بعضهم
أن الأشتر أو ابن عباس كان قديراً على تحويل ابن العاص

من رأيه والجنوح به إلى حزب الإمام بعد مساومته التي ساومها في حزب معاوية فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم ، وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع واللبانات يعز عليهم إخفاقهم كما يعز عليه إخفاقه ، وما أسهل ترجع الشرعى الذى يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتابعونه على نقض حكم الحكيم المتفقيين ! لقد كان النبى عليه السلام يقول عن عمار بن ياسر إنه « تقتله الفتنة الباغية » فلما قتله جند معاوية وخيفت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة البغى بشهادة الحديث الشريف — قال قاتل منهم : إنما قتله أن جاء به إلى الحرب . فشاع بينهم هذا التفسير العجيب وقبلوه جميعاً غير مستثنى منهم رجل واحد . أفلا يقبلون تفسيراً مثله إذا تحول ابن العاص وأفتى الحكماء بخلع معاوية ومبايعة الإمام ؟

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين إذن حل أصوب من الحل الذى أذعن له الإمام على كره منه ، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له وهو يسوى بينه وبين غيره في عقابه

ويبقى اعتزال الخلافة من أول الأمر وهو خطة ترد على الخاطر حيال هذه العضلات التي واجهها الإمام ولم يكن عسيراً عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار كلها ، وشيوعهما قبل ذلك بين جنده الذى يعول عليه

فمن السخف أن يخطر على البال أن رجلاً كعلي بن أبي طالب يترك وادعاً في سربه بين هذه الزعازع التي تحيط بالدولة الإسلامية في عصره

إن تركه الثوار وأعفوه من الحكم لم يتركه أصحاب السلطان ولم يعفوه من الدسيسة والإيذاء ، لا اعتقادهم أنه باب من أبواب الخطر الدائم ، وأنه ما عاش فهو علم منصوب يوق إليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا . وقد قيل إن ابنه الحسن مات مسموماً في عهد معاوية خوفاً من لياذ الناس به ورجعتهم إليه . وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد . وما أعظم البون في المكانة والحساب بينهما وبين الإمام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال ولعلنا نقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى إذا رجعنا إلى أقوال أبطال الميدان نفسه في علل النصر والهزيمة ، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه

فعلى يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه في الدهاء فيقول : « ... والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس ... »

أو يقول : « ولكنه لا رأى لمن لا يطاع »
ويعلل ما أصابه في بيعته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم

« . . . لم تكن بيعتكم إياي فلتة ، وليس أمرى وأمركم واحداً
إني أريدكم لله ، وأنتم تريدوني لأنفسكم »
ومعاوية يذكر الحصال التي أعين بها على على فيقول : إنه
« كان رجلاً لا يكتّم سرّاً وكنت كتوماً لسرى ، وكان يسعى
حتى يفاجئه الأمر مفاجأة وكنت أبادر إلى ذلك ، وكان
في أخبث جند وأشدّهم خلافاً . وكنت أحب إلى قريش منه ،
فنلت ما شئت . . . »

وعمر بن العاص يقول عن عدة النجاع في طلب
الخلافة : « إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضرسان ،
يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر »

وهذه هي أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها ، إلا أنها
تظل ناقصة ما لم نقرنها بحقيقة أخرى ، وهي أن هزيمة معاوية
كانت مرجحة — بل مؤكدة — لو أنه وضع في موضع على
وابتلى بالأسباب التي ابتلى بها ، فالبلاء كله إنما كان في خبث
الأجناد وشدة خلافهم ، ولهذا كان سر على يعرف وسر
معاوية يكتّم. لأن معاوية يطاع ونيته في صدره وعلياً لا يطاع
إلا إذا سئل عن نيته وما يحل منها أو يحرم في رأى أتباعه

على أننا نود أن نقف عند الحد المأمون في تعليل النصر
والهزيمة ولا نعدوه إلى ما وراءه. فليس من قصدنا أن نصف
علياً بقوة الدهاء وسعة الحيلة ، ولكننا قصدنا أن نبرئه من

عجز الرأى وضعف التدبير ، لأن أسباب الهزيمة موفورة بغير هذا السبب الذى لا دليل عليه

وبما لا شك فيه أن علياً أشار بالرأى فى مواقف كثيرة فأصاب المشورة ، وأنه وصف أناساً فدل على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من الطباع والخصال ، وأنه أخذ بالحزم فى توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنه لزم الكفاية فى ذلك ولم يتجاوزها إلى الأمد الذى يسلكه بين الدهاة الموسومين بفرط الدهاء

فمن مشوراته الصائبة أنه نهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه ، فقال له : « إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتتكب لا تكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم . . . ليس بعدك مرجع يرجعون إليه ، فابعث إليهم رجلاً مجرباً . . . فإن أظهره الله فذاك ما تحب وإن تكن الأخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين »

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم قوله لابن عباس وقد أرسله إلى طلحة والزبير : « لا تلقين طلحة فإنك إن تلقه تلفة كالثور عاقصاً — أى لاوياً — قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن التى الزبير فإنه ألين عريكة فقل له : يقول لك ابن خالك عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق . فما هذا مما بدا ؟ »

ومن حزمه أنه كان يبت عيونه وجواسيسه في الشرق والغرب ليطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه ، وأنه كان إذا وجبت الحرب بادر بالخروج ولم يأت التردد والإبطاء بعد ذلك إلا من خلاف جنده

ومن معرفته للجماهير أنه وصفهم أوجز وصف حين قال إنهم أتباع كل ناعق ، ولأنهم « هم الذين إذا اجتمعوا ضروا وإذا تفرقوا نفعوا » . . . لأنهم إذا تفرقوا رجع أصحاب المهن إلى مهنتهم فانتفع بهم الناس

فهذا قسط من الرأي الصائب كاف لمهمة الحكم لو تصدى به الإمام للخلافة والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة في دور تأسيساً وتلفيق أجزائها

ولكنه قسط من الرأي لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاة الذين يكيدون بالرأي وبالعمل النافذ على السواء ونعود بعد هذا فنقول إنه لم يخسر كثيراً بما فاتته من الدهاء ، ولم يكن ليربح كثيراً لو استوفى منه أوفى نصيب لأنه لأبد من ملك أو خلافة

ولن يكون ملكاً بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، وإن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريد به ، لأنه عصر ملك تهيأت له الدواعي الاجتماعية ، وهياً له الرجل بخلائقه ونياته ومعاونة أمثاله

ولم يكن معاوية زاهداً في الخلافة على عهد أبي بكر
أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه
فلما جاء عصر الملك طلب الملك والملك يطلبه

* * *

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عدة الخلافة وعدة
الملك في صراع على معاوية أن يذكر عدة أخرى لم تظهر في
هذا الصراع ، وقد ظهرت في مآزق شتى من أخرج مآزق
التاريخ واعتمد عليها أبطاله الكبار كثيراً في تأسيس الدول
وقمع الثورات ، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عناء
طويل ، ونريد بها عدة البطش العاجل والمباغته الحاسمة كلما
تأشبت العقد وتعسرت الحيلة ووجب الخلاص السريع

فقد علمنا مثلاً أن الأشعث بن قيس كان يعترض الإمام
في كل خطوة من خطوات النصر ويثقل عليه باللجاجة والعنت
في مواقف مكربة تضيق بها الصدور

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد في هذا الباب ، بل
كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج يظهرون بالعنت
في غير موضعه ويذهبون به وراء حده ، وربما بلغوا به من
الضرر في معسكر الإمام فوق مبلغ الأشعث بن قيس ، على
عظم الفارق بين سلطانهم وسلطانه
ألا يخطر على البال هنا أن ضربة من الضربات القاضية

كانت تنجع في هذا العنت المكرب حيث لا تنجع العقوبة الشرعية أو الأحابيل السياسية ؟

ماذا أو أن الإمام جرد سيفه بين أولئك المشاغبين وطاح برأس الأشعث بن قيس قبل أن يفنى أحد إلى نفسه ثم ولى على الفور من يقوم مقامه في رئاسة قومه ويكفل له الطاعة بينهم لأمره ؟ أكان بعيداً أن تفعل الرهبة فعلها فيسكن الشاغب ويهاب المتطاوول ويجمع المتفرق ويقل الخلاف بعد ذلك على الإمام وعلى الرؤساء عامة ؟
لم يكن ذلك ببعيد ولكنه كذلك لم يكن بالمحقق ، ولا بالمأمون .

فهي مجازفة ذات حدين تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معاً

وكل ما تفيدنا إياه هذه الملاحظة العابرة على التحقيق أن الإمام رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هذه الملكة التي اتصف بها بعض أبطال القلاقل في أيام الفصل بين عهدين متدبرين .

فكانت له ضربة الشجاع ، ولم تكن له ضربة المغامر أو المقامر .

* * *

ومهما يكن من حكم الناقلين في سياسة الإمام فمن

الجور الشديد أن يطالب بدفع شيء لا سبيل إلى دفعه ،
وأن يحاسب على مصير الخلافة وهي منتهية لا محالة إلى ما انتهت
إليه

وقد نقدت سياسة علي لفوات الخلافة منه قبل البيعة ،
كما نقدت سياسته لفوات الخلافة منه بعد البيعة ، وأحصى
عليه بعض المؤرخين أنه تأخر نيافاً وعشرين سنة فلم يخلف
النبي ولم يخلف أباً بكر ولم يخلف عمر ، كأنه كان مستطيعاً
أن يخلف أحداً منهم بعمل من جهده وسعى من تدبيره ،
فأعياه السعى والتدبير

فما لا شك فيه أن الإمام أنكر إجحافاً أصابه في تخطيه
بالبيعة إلى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه ، وأنه
كان يرى أن قرابته من النبي مزية ترشحه للخلافة بعده
لأنها فرع من النبوة على اعتقاده ، وهم شجرة النبوة ومحط
الرسالة ، كما قال

وما لا شك فيه أن شعوره هذا طبيعي في النفس الإنسانية
كيفما كان حظها من الزهد والقناعة ، لأن تخطيه — مع
هذه المزية التي ترشحه للبيعة — يشبه أن يكون قدحاً في
مزاياء الأخرى من علم وشجاعة سابقة وجهاد وعفة عن
المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له وبمالة على الغض
من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدر

فيها والخط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكراهة
إلا أن الخلافة الإسلامية مسألة عالمية لا توزن بميزان
واحد ولا يؤتم فيها برأى واحد ولا بحق واحد . وقد يضحى
في سبيلها بالعظيم والعظماء الكثيرين إذا تعارضت الحقوق
وتشعبت الآراء

ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى في ميزان عليّ هي
العائق الأول في سائر الموازين ، ومنها ميزان النبي صلوات
الله عليه .

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبية في قريش
وفي القبائل العربية عامة ، لعلمه بخطر هذه العصبية على
الدعوة الجديدة وكراهته أن يصور الإسلام للعرب كأنه
سيادة هاشمية تتوارثها عنه عصبية هاشم دون العصب من
سائر العرب والمسلمين ، قد رضى في سبيل هذا المقصد
الحكيم أن يجعل بيت أبي سفيان صنواً للكعبة في أمان
اللاجئين إليه ، وأصهر إلى أبي سفيان وندب ابنه معاوية
للكتابه له بين النخبة المختارة من كتابه ، وربما حسن لديه
أن تؤول الخلافة إلى عليّ بعده إذا شاء المسلمون ذلك ،
ولكن على أن تكون خلافته اختياراً مرضياً كاختيار غيره
من أنصاره وأصحابه ، ويستوى منهم القريب والبعيد
ولم تكن الحكمة النبوية هي وحدها التي تأبى إثارة

العصبية وتصوير الإسلام للعرب وللناس عامة في صورة
السيادة الهاشمية ، بل كانت الدعوة كلها في صميم أصولها
تأبى هذا الذي أبته الحكمة النبوية وتجنبه غاية ما في وسعها
اجتنابه . لأن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية تشمل الأمم
كافة من عرب إلى عجم ومن مشرق إلى مغرب ، وتقوم
في أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم إلى
الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق ، فليس من
المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية ، ولا من المعقول
أن يبنى الأساس على المساواة وأن يقام الحكم على هذا
التفضيل

وإن أحق الناس أن يفتن إلى هذه الحكمة لهم أولئك
الغلاة الذين زعموا أن وراثة الخلافة في بني هاشم حكم من
أحكام الله وضرورة من ضرورات الدين

فلو أنها كانت حكماً من أحكام الله لكان أعجب
شيء أن يموت النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور ،
وأن يحتم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد
من آل البيت

ولو أنها كانت من ضرورات الدين ، أو ضرورات
القضاء ، لنفذت في الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم ، وحبطت
كل خلافة تنازعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية

وهذا هو العائق الأول الذى حال بين عليّ وبين الخلافة ، ولا قدرة له عليه ، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة ، وذكره الفاروق حين قال : إن قريشاً اختارت لنفسها فأبّت أن تجمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة

ويرى بعض المؤرخين أن قريشاً كانت تحقد على الإمام وتنحيه عن الخلافة لعلّة أخرى تقترب بهذه العصبية التى أوقعت التنافس بين بيوتها وبين بني هاشم ، فقد بطش الإمام بنفر من جلة البيوت القرشية فى حروب المسلمين والمشرّكين ، وقتل من أعلام بني أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية والوليد بن عتبة خاله وحنظلة أخاه ، وجميعهم من قتلاه فى يوم بدر عدا من قتلهم فى الوقائع والغزوات الأخرى ، فحفظ أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم فى الإسلام ، وزادهم حقداً عليه أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلهم من الكفار . وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبى الحديد : « . . . كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه بعد وفاة ابن عمه ، من إظهار ما فى النفوس وهيجان ما فى القلوب ، حتى الأختلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته فى أسلافهم وآبائهم ، فعلاوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله »

وقد علم الإمام هذا من قريش عند ما يش من مودتها

وابتلى بالصريح والدخيل من كيدها فقال : « مالى ولقريش ؟
أما والله لقد قتلهم كافرين ولأقتلهم مفتونين . . . والله
لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته . فقل لقريش
فلتضج ضجيجها »

* * *

ولقد سبق الإمام إلى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة
هم أبو بكر وعمر وعثمان

فإذا نظرنا إلى عائق العصبية الذى قدمناه فلا نرى
شيئاً أقرب إلى طبائع الأمور من سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم
إلى ولاية الخلافة بعد النبي عليه السلام ، لأنهم أقرب الناس
أن يختارهم المسلمون بعد خروج العصبية الهاشمية من مجال
الترجيح والترشيح

فليس أقرب إلى طبائع الأمور فى بلاد عربية إسلامية
من اتجاه الأنظار إلى مشيخة الإسلام فى السن والوجاهة
والسابقة الدينية ، لاختيار الخليفة من بينها على السنة التى
لم تتغير قط فى تواريخ العرب الأقدمين ، ولم يغيرها الإسلام
بحكم العادة ولا بحكم الدين

ولم يكن الإمام عند وفاة النبي من مشيخة الصحابة
التي تؤول إليها الرئاسة بداهة بين ذوى الأسنان ممن مارسوا
الشورى والزعامة فى حياته عليه السلام ، لأنه كان يومئذ

ففي يجاوز الثلاثين بقليل ، وكان أبو بكر وعمر وعثمان قد
لبثوا في جوار النبي بضع عشرة سنة قبل ظهور عليّ في
الحياة العامة ، وهم يشيرون على النبي ويخدمون الدين ويجمعون
الأنصار ويدان لهم بالتوقيف والولاء

والعائق الذي قام بين عليّ وبين الخلافة هو في طريق
هؤلاء الثلاثة السابقين تمهيد وتقريب ، ونعني به عائق العصبية
الهاشمية

لأن قريشاً لا تنفس على بني تم ولا بني عدى ولا بني
أمية في رئاسة عثمان خاصة ، كما تنفس على بني هاشم
إذ تجتمع لهم النبوة والخلافة

والإمام نفسه لم يفته أن يدرك هذا بثاقب نظره حين
قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق :
« إن الناس ينظرون إلى قريش ، وقريش تنظر إلى بيتها
فتقول : إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً .
وما كانت في غيرها من قريش تداولتموها بينكم »

وإذا اجتمع هذا العائق إلى عائق السن والتوقيف للمشيخة
المقدمة فهما مبعدان للإمام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه
نعم إن فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق وبلغ
الإمام الخامسة والأربعين وسبقت له في المشورة سوابق

مأثورات ، فأصبح الفارق بينه وبين من يكبرونه مزية
تعين على العمل والجهد وتنفي مظنة الضعف والتواكل ،
ولكن الذى كسبه بهذه المزية خسره بازدياد المطامع الدنيوية
ويأس الرؤساء من الوفر والنعمة على يديه ، واعتقاد الطامعين
أنهم أقرب إلى بعض الأمل فى لين عثمان وتقدم سنه منهم
إلى أمل من الآمال فى شدة الإمام وعسر حسابه

وبقيت الجفوة بينه وبين قريش على حالها لم يكفكف
منها تقادم العهد كما قال ابن أبى الحديد

وعلى هذه الجفوة فى القبيلة كلها دخلت فى الأمر
دخلة البواعث الشخصية التى لا يسلم منها عمل من أعمال
بنى الإنسان فى زمن من الأزمان . فقد اجتمع رھط الشورى
الذين نذبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده . فتقدم بينهم
عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له
أن يستشير الناس باسمهم ويعلن البيعة على عهدتهم . وقيل
إنه أنس من الزبير وسعد بن أبى وقاص ميلا موقوتاً إلى على
وانحرفاً موقوتاً عن عثمان ، فسارع إلى المنبر وباع عثمان
وجاراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق

وكان عبد الرحمن بن عوف صهراً لعمان ، لأنه زوج
أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط
ويقضى الحق أن يقال فى هذا المقام إن بيعة عثمان

قد تمت باتفاق بين المسلمين لم ينقضه خلاف معدود ،
فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هي التي خذلت علياً ،
وقدمت عثمان عليه ، إذ لو كانت هناك مغالبة شديدة بين
الزبيرين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن
أبن عوف وهو واحد من خمسة أو ستة إذا أشركنا معهم
عبد الله بن عمر بن الخطاب

* * *

ثم بويح الإمام بعد مقتل عثمان فهل تحولت قريش عن
جفوتها أو نظرت إلى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها؟ كلا.
بل جاءت البيعة في المدينة يوم خفت فيها صوت قريش
وهبطت سمعة حكامها ، ويوم أصبحت البيعة ثورة على
قريش تنكر عليها الأثرة بالملك والأثرة بالغنائم والأمصار ،
ويوم انقسم المجتمع الإسلامي قسميه اللذين التبسا وتداخلا
حيناً حتى فصلتهما الحوادث فصلها الحاسم في خلافة عثمان :
قسم يريد الرجعة إلى الخلافة والآداب النبوية وقسم يريد
المضي في الملك والدولة الدنيوية

فأى القسمين كان قسم علي كائناً ما كان سعيه
واجتهاده ؟ وأي سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة
منذ بدايتها بعد وفاة النبي إلى ختامها الفاجع بعد مقتل
عثمان ؟

كل سياسة له لم تكن لتحيد به عن الخاتمة المحتومة
أقل محيد

وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تدبيره فهو
على هذا الملتقى الذى يتلاحق عنده الإسراع والإبطاء

وعلى هذا ينبغي أن نرجع إلى علة غير سياسة على
لتعليل العوائق التى قامت دون مبايعته بالخلافة قبل الصديق
والفاروق وعثمان

فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التى نظرت بها
فريش إلى السيادة الهاشمية ، وهو غير مسئول عن سنه التى
تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوى السابقة فى الجهاد
والزعامة والأصالة بين ذوى الأسنان والأخطار

وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التى جعلت تأسيس
الإسلام على أسرة واحدة فى العالم كله أمراً ملحوظاً بالتوجس
والإحجام منذ اللحظة الأولى

نعم قد يسأل الإمام عن علاقته بالناس وقدرته على
تألفهم بالآمال والمجاملات ، ليأنسوا إليه ويرفعوا حجاب
الحفوة بينهم وبينه ، ويؤثروه على غيره بالخلافة ، أملا فى
بره واطمئناناً إلى حفاوته ووده

وقد يرد على بعض الخواطر أن سياسة الدولة الدنيوية
أو سياسة الإرضاء بالمنافع والوعود كانت أجدى عليه من

آداب الخلافة الدينية وأخلق بتمكينه أولاً وآخرأ بين قریش وقبائل العرب عامة

فهذا فی رأيهم مأخذ يرجع إلى شخصه وأعماله ويسأل عنه كما يسأل الإنسان عن عمله وتصريف إرادته وفكره ، ولا يجوز أن نرجع به إلى حكم الحوادث القاهرة ، وسلطان المصادفات التي لا قبل له بتبديلها

ولكن الواقع أن هذه السياسة — سياسة المنافع الدنيوية — لم تكن لتجديه شيئاً بعد وفاة النبي ولا بعد مقتل عثمان فبعد النبي عليه السلام لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاضت في الأيدي وأنشأت في المجتمع الإسلامي طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستزيدها

فالذي يناضل في سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع إنما كان يناضل بسلاح غير موجود . بل كان يناضل سلاحاً ماضياً ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التي غلبت في ضرباتها الأولى كل سلاح

أما بعد مقتل عثمان فأبعد الأمور عن التخيل أن يغلب على معاوية في سوق المنافع الدنيوية ، لأن معاوية قد أهب لها أهفته قبل عشرين سنة ، وجمع لها أنصاره وكثر لها كنوزه في بلاد وادعة بين جند مطيع ولو توافرت لعل مادة هذه السياسة لما توافر له أعوانها

والمسعدون عليها . فليس أقل نفعاً في هذا المضمار من أعوانه
الذين ثاروا على سياسة المنافع وباءوا من أجلها بدم خليفة ،
واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين ، فلا يديرون
أنفسهم إلى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه

وأغلب الظن أن علياً كان يخسر بهذه السياسة أولئك
الذين أحبوه ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه

فقد حبيته آداب الخلافة إلى كل طبقة تكره استغلال
الحكم ولا مطمع لها فيه . فكل بلاد خلت من عصبة
المرشحين للحكم فقد كانت من حزبه وشيعته بغير استثناء ،
فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس والعراق ، ونشأت
في اليمن — وقد عهدت حكمه قديماً — تلك الطائفة السبئية
التي غلت في حبه حتى ارتفعت به إلى مرتبة التقديس ،
وانتشرت في مصر وفارس بدور تلك الشيعة الفاطمية والإمامية
التي ظلت كامنة في تربتها حتى أخرجت شطأها بعد أجيال ،
وشذت الشام لأنها كانت في يد معاوية ، وشذت أطراف
من انعراق أول الأمر لأنها كانت في يد طلحة والزبير ،
ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الإسلامية من أقصاها
إلى أقصاها ، فلولا أن سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من
القادة ، وأن العصب من القادة كانوا كلما وجدوا في بقعة
من البقاع وجد معهم النفع والاستغلال ، لقد كانت محبة

أولئك السواد أنفع له من عصب معاوية أجمعين

وتفضى بنا هذه التقديرات جميعاً إلى نتيجة واضحة
تلخصها في كلمات وجيزة ، ونعتقد أنها أعدل الأقوال في
وصف تلك السياسة التي كثرت فيها مطارح النقد والدفاع ،
فسياسة عليّ لم تورطه في غلطات كان يسهل عليه اجتنابها
باتباع سياسة أخرى

وهي كذلك لم تبلغه مآرب مستعصية كان يعز عليه
بلوغها في موضعه الذي وضع فيه وعلى مجراه الذي جرى
عليه

فليست هي علة فشل منتزع ، ولا علة نجاح منتزع ،
أو هي لا تستدعي الفشل من حيث لم يخلق ولا تستدعي
النجاح من حيث لم يسلس له القياد
ورأينا في سياسته فهماً وعلماً ولكننا لم نر فيها الحيلة
العملية التي هي إلى الغريزة أقرب منها إلى الذكاء

فكان نعم الخليفة لو صادف أوان الخلافة

وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك واستغنائه عن
المساومة والإسفاف ، ولكنه لم يأت في أوان خلافة ولا في
أوان ملك موطن ، فحمل أعباء النقيضين ، وأخفق حيث
ينبغي أن ينجح أو حيث يعيبه أن ينجح . . . وتلك آية الشهيد

حكومته

كانت الدولة الإسلامية الناشئة على شفا الخطر في إبان الفتنة الداخلية بين على ومعاوية . ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذي يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذي يهددها ، وتتلخص عوامل الأمان في وقائع اثنتين : أحدهما أن الإسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح إليها ، فرسخت دعائمه وامتنعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره ، وسكن إليه الناس مؤمنين بدوام ظله وشمول عدله ، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى إلى حكمه وهو باق على اعتقاده

وثانيهما أن أعداء الإسلام كانوا في شاغل عنه بما أصابهم من الوهن وأحلق بهم من المخاوف ، وربما صح في الفتنة الإسلامية يومئذ ما يصح في كثير من الطوارئ التاريخية الكبرى ، وهي أنها لن تكون شرّاً محضاً في جميع عواقبها ، ولا تخلو من الخير على غير قصد من ذويها . فإن هذه الفتنة قد أغرت أعداء الإسلام بالانتظار وأوقعت في روعهم أنهم غنيون عن التحفز والثوب الذي يشق عليهم

بجهده وهم في تلك الحالة من الجهد والإعياء . ففقت دولة
الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والأناة ، وألهم
الله لهم منه ببعض الإتاوات والنوافل فراجعوا متربصين إلى
أن يقضى الخلاف بين المسلمين قضاءه وهم وادعون مكفيون
بشر القتال . فكان هذا الانتظار الحادع جانباً من جوانب
الخير في الفتنة الإسلامية التي فاضت يومئذ بالشرور

* * *

وعلى هذا انقضت أيام عليّ وليس للحكومة الإسلامية
سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح أو سياسة الدفاع
أو سياسة المفاوضة والاستطلاع . وكل ما يدور الكلام
عليه عن حكومة عليّ فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين
رعاياه ، أو هو السياسة الداخلية كما نسميها في العصر الحديث
ومن اليسير أن نعرف سياسة الإمام بينه وبين رعاياه
بغير حاجة إلى الإطالة في التعريف وسرد الأمثال
لأنها سياسة الرجل الذي شاء القدر أن يجعله فدية
للخلافة الدينية في نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية

فنحن نتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين فإذا طريق
عليّ هي طريق الخلافة المنزهة ، حين تقابل الدولة الدنيوية
مقابلة الخصم للخصم أو التقيض للتقيض . أو هي أقرب
الطريقين إلى المساواة وأدناها إلى رعاية الضعفاء . فالتاس
في الحقوق سواء

لا محابة لقوى ولا إجحاف بضعيف ، وقد عمد إلى
القطائع التي وزعت قبله على المقربين والرؤساء فانتزعها من
القابضين عليها وردها إلى مال المسلمين لتوزيعها بين من
يستحقونها على سنة المساواة ، وقال : « والله لو وجدته قد
تزوج به النساء وملك به الإمام لرددته ، فإن في العدل سعة .
ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق »

وكان دستوره في تحصيل الضرائب المفروضة على الناس
أن ينظر في عمارة الأرض أبلغ من النظر في استجلاب
الضريبة . فكان يكتب إلى واليه : « تفقد أمر الخراج بما
يصلح أهله ، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ،
ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم . لأن الناس كلهم عيال على
الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك
في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ،
ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ،
ولم يستقم أمره إلا قليلاً ، وإنما يؤتى خراب الأرض من
إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإسراف الولاة على الجمع ،
وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر . . . »

أما دستوره في الولاة والعمال فعلاصته ما كتب به إلى
الأشتر النخعي يقول له : « انظر في أمور عمالك فاستعملهم
اختياراً ولا تولم محابة وأثرة ، فإنهم جماع من شعب الجور

والحيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام ، فإنهم أكثر أخلاقاً وأصح أخلاقاً وأقل في المطامع لإسرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم أن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وبعث العيون من أهل الصدق والعون عليهم ، فإن تعاهدك في السر لأموالهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية »

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال كان ينهى أشد النهي عن كشف معائب الناس ، أو كما كان يقول في وصية ولاته : « وليكن أبعد رعيته منك وأشأنهم عندك أطلبهم لمعائب الناس : فإن في الناس عيوباً والى الحق من سترها ، فلا تكشفن عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك »

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثه على اتخاذ العيون والحواسيس فقال في وصيته لمحمد بن أبي بكر : « لا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعبدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالحوار ، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله . . . إن شر وزرائك من كان للأشرار

قبلك وزيراً ، ومن شركهم في الآثام فلا يكون لك بطانة ،
فلنهم أعوان الأئمة وإخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير
الحلف ، ممن له مثل آرائهم ونفادهم وليس عليه مثل آصارهم
وأوزارهم »

ولم ينكر شيئاً من سياسة التولية ثم صنع مثله في عهده ،
على كثرة الإغراء حوله باصطناع التقية والمداراة والهوادة
قليلاً مع الأقرباء وذوى الأخطار

ومن زعم غير ذلك من ناقيديه في عصره أو بعد عصره
فلأنما هو آخذ في المقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن
والغايات

إذ كان مما قيل مثلاً أن علياً أقام عبد الله بن عباس
على البصرة وعبيد الله بن العباس على اليمن ومحمد ابن
أبي بكر ابن زوجته على مصر . وهم أقرباؤه وخاصة أهله ،
فهو إذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من إيثار الأقرباء
بالولايات وإقصاء الآخرين عنها

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية في غير
حكومة الإمام ، ولم يكن للإمام معتمد على غيرهم بعد أن
حاربتهم قريش وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء
الأمصار

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها ولم يؤثروا بالذي

نخصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وأرزاقه ،
 بل كانوا يحاسبون على ما في أيديهم أعسر حساب ، وكانوا
 لتضييقه عليهم في المراقبة يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها
 كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة إلى مكة

وقد بلغ من حسابه للولاة أنه كان يحاسبهم على حضور
 الولائم التي لا يحمل بهم حضورها . فكتب إلى عثمان بن
 حنيف الأنصاري عامله في البصرة : « أما بعد يا ابن حنيف ،
 فقد بلغني أن رجلاً من فتيّة أهل البصرة دعاك إلى مأدبة
 فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان ،
 وما ظننت أنك تعجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم
 مدعو ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم فما اشتبه
 عليك علمه فالفظه ، وما أيقنت بطيب وجوهه فقل منه »

واستكثر على شريح قاضيه أن يبني داراً بثمانين ديناراً ،
 وهو يرزق خمسمائة درهم . وحاسب على أقل من هذا من
 هو أقل من شريح أمانة في القضاء وحرماً في الدين

فلو أن الإمام اختص أقرباءه بالولايات التي يحاسبون
 عليها هذا الحساب لما كان في اختصاصه إياهم فستبيح حق
 ولا مستبيح مال ، فكيف وهو لا يختصهم إلا بالقليل منها ،
 ولا يختصهم وله مندوحة عنهم ، أو يختصهم وهم دون غيرهم
 في القلعة والأمانة !

* * *

وقد انقسمت طريق الخلافة وطريق الدولة الدنيوية في كل أمر من الأمور على عهد الإمام ، ولم تنقسم في مسألة الولاية أو مسألة الاستغلال وكفى
وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين في عهده قيام
الفكرة العالمية إلى جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية
فالدولة الدنيوية تشد أزرها بالعصبية الجنسية ، والخلافة
الدينية تشد أزرها بالإخاء بين الشعوب وبطلان الفوارق
بين الأجناس

وقد كانت القبيلة من أنصار الإمام تقاتل القبيلة من
أنصار معاوية في سبيل الرأي والعقيدة وكان أنصار الإمام
أبدأ من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين
قريش خاصة وبين بنى هاشم على الأخص ، وبين قبائل
العرب جميعاً على التعميم

وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامة على
أو خلافته هو أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأولان الخلافة ،
فإذا ذهب هذا وجب أن يذهب ذلك ، أيّاً كانت السياسة
المتوخاة وبالغاً ما بلغ نصيبها من السداد والصواب

* * *

ولنا أن نعم هذا الحكم الإنساني في كل شأن من شؤون

الحكومة قضى به على " في عهده أو عهود الخلفاء من قبله
فالروح الإنساني هو قوام الحكومة الإمامية كما ينبغي
أن يكون ، وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة
الآدمية ، وهي طاقة لها ما لها من حدود

جىء إلى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشبهه في حملها ،
فاستفتى الإمام فأفتى بوجوب الإبقاء عليها حتى تضع جنينها ،
وقال له : إن كان لك سلطان عليها فلا سلطان لك على ما في
بطنها

وانتزع امرأة من أيدي الموكلين بإقامة الحد عليها .
وسأله عمر فقال : أما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :
رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير
حتى يكبر ، وعن المبتلى حتى يعقل ؟ قال : بلى . قال :
فهذه مبتلاة بنى فلان . فلعله أتاها ذهابها ، قال عمر :
لا أدري . قال : وأنا لا أدري . فترك زوجها للشك في عقلها

وأتى عمر بامرأة أجهدتها العطش فرت على راع فاستسقته
فيأبى أن يسقيها إلا أن تتمكنه من نفسها . ففعلت . فشاور
الناس في زوجها ، فقال على : هذه مضطرة إلى ذلك .
فخلت سبيلها

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة في القصاص وتفسير
الشرعة

إلا أنه قد حاد عن هذه السنة في أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره ، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس وذلك هو إحراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الإلهية وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة ، وقيل إنهم أصروا على عنادهم وهم يحرقون ، فاتخذوا من تعذيبه لهم بالنار دليلاً على أنه هو الإله المعبود . إذ لا يعذب بالنار إلا الله

فهؤلاء المفسدون المفتونون قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التي لا يقوم لها نظام على هذه الضلالة ، ولكن الإحراق بالنار صرامة لا توجبها ضرورة العقاب ، وليس في اجتنابها خطر على الشريعة ولا على النظام

* * *

وكان الإمام يذكر أبدأً في حكومته أن الحقوق العامة لها شأن لا ينسى مع حقوق الأفراد

ومن ذلك ما نقله الطبري عن بعض الأسانيد حيث قال : « رأيت علياً عليه السلام خارجاً من همدان فرأى فتين يقتتلان ففرق بينهما ، ثم مضى فسمع صوتاً : يا غوثاً بالله . فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله وهو يقول : أتاك الغوث . فإذا رجل يلازم رجلاً فقال : يا أمير المؤمنين . بعث هذا ثوباً بتسعة دراهم وشرطت عليه أن لا يعطيني مغموراً ولا مقطوعاً

أبديته بهذه الدراهم ليبدلها لي فأبى فلزمته فلطمني . فقال :
 أبديله ، ثم قال : بيتك على اللطمة . فأثاه بالبينة . قال :
 دونك فاقصص . قال : إني قد عفوت يا أمير المؤمنين .
 قال إنما أردت أن أحتاط في حقك . ثم ضرب الرجل تسع
 درات ، وقال : هذا حق السلطان »

وكان يكرر هذا الحكم في كل ما شابهه من أمثال هذا
 العدوان ، وهو أشبه المذاهب بمذهب الحكومات العصرية
 في القصاص

ويقال الكثير عن مناهج الإمام في الحكومة وسياسة
 الرعية ، مما يغني فيه هذا الإجمال عن التوسع في التفصيل
 ولكن الذي لا ينسى في سياق الكلام عن الإمامة
 والدعوة العالمية أنه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة
 من المدينة إلى أرض غير أرض الحجاز ، وهو الحجازي
 سليل الحجازيين

وقد اختار الكوفة فكانت أوفق عاصمة للإمامة العالمية
 في تلك المرحلة من مراحل الدولة الإسلامية ، لأنها كانت
 ملتقى الشعوب من جميع الأجناس ، وكانت مثابة التجارة بين
 الهند وفارس واليمن والعراق والشام ، وكانت العاصمة الثقافية
 التي ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب
 زالأفانين الشعرية والروايات

الإمام والنبي والصحابة

أحاديث النبي عليه السلام في فضل عليّ ومحبته متواترة في كتب الحديث المشهورة ، منها ما انفرد به وهو حديث الخيمة الذي رواه الصديق رضي الله عنه حيث قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة وهو متكئ على قوس عربية ، وفي الخيمة على فاطمة والحسن والحسين فقال : معشر المسلمين . أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة حرب لمن حاربهم ، ولي لمن ولاهم ، لا يحبهم إلا سعيد الجلد طيب المولد ، ولا يبغضهم إلا شقي الجلد ردىء الولادة »

ومنها ما اشترك فيه وغيره وهو الذي روته السيدة عائشة حيث سئلت : « أى الناس أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : فاطمة ، فقيل : من الرجال ؟ قالت زوجها . إن كان ما علمت صواباً قوَّاماً »

وقد روى حديث في هذا المعنى حيث سئل رسول الله عن أحب الناس إليه فقال : من النساء عائشة ومن الرجال أبوها ولا تناقض بين الحديثين ، إذ كانت السيدة عائشة هي التي تروى الحديث الأول وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم

ن عموم كلامه ، أو كانت تروى عن أقرباء النبي من لحمه
ودمه ، فتقول ما تعلم عن غيرها
وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية في فضل علي ومحبته
ومنزله عند الله ونبيه ، وهي تعد بالعشرات

وأصحاب المذاهب يختلفون في تأويل هذه الأحاديث وفي
أسانيدها ويوجهونها حيث انجهوا من التشيع للإمام أو التشيع
عليه ، وهو شرح طويل لا يهمننا منه هنا أن ننصر فيه فريقاً
على فريق ، أو نرجح مذهباً على مذهب . إذ ليس فهم الإمام
موقوفاً على تغليب أى الفريقين وتعزيز أى المذهبين ، وفهم
الإمام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما نعينه

فلهما يختلف الرواة في تأويل الأحاديث فالذى يسعك أن
تجزم به من وراء اختلافهم أن علياً كان من أحب الناس إلى
النبي ، إن لم يكن أحبهم إليه على الإطلاق

لقد كان النبي عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به
من الغرباء والأقربين . فأى عجب أن يخص بالحب من بينهم
إنساناً كان ابن عمه الذى كفله وحماه ، وكان ربيبه الذى أوشك
أن يتبناه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنده ، وكان بديله في
الفرائض لثلاثة الهجرة التى همّ المشركون فيها بقتل من يبيت في
فراشه ، وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء في جميع غزواته ،
وتلميذه الذى علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشئ في سنه ؟ !

رسول الله على فخذه وهتف به : « يا سعد بن مالك بن الشهيد .
 بعض قولك لأخيك عليّ ؟ فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل
 الله »

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى ، فقام رسول الله فيهم
 خطيباً يقول لهم : « أيها الناس : لا تشكوا عليّ . فوالله إنه لجيش
 في ذات الله »

ويلوح لنا أن النبي عليه السلام كان يحب عليّاً ويحببه إلى
 الناس ليمهد له سبيل الخلافة في وقت من الأوقات ، ولكن على
 أن يختاره الناس طواعية وحباً لا أن يكون اختياره حقاً من حقوق
 لعصبية الهاشمية ، فإنه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهده
 اتقائه ولم يحذر خطراً على الدين أشد من حذره أن يحسبها الناس
 سبيلاً إلى الملك والدولة في بني هاشم ، وقد حرم نفسه الشريفة
 حظوظ الدنيا وأقصى معظم بني هاشم عن الولاية والعمالة لينفي
 هذه الظنة ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى
 والمشيئة

فالتزم في التمهيد لعلّ وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب
 والكفالة إلى التقديم والوكالة : أرسله في سرية إلى فندك لغزو
 قبيلة بني سعد اليهودية ، وأرسله إلى اليمن للدعوة إلى الإسلام ،
 وأرسله إلى منى ليقرأ على الناس سورة براءة ويبين لهم حكم الدين
 في حج المشركين وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينة حين خرج

المسلمون إلى غزوة تبوك ، ولم يفته مع هذا كله أن يلمح الجفوة بينه وبين الناس ، وأن يكله إلى السن تعمل عملها مع الأيام ، ويكلهم في شأنه إلى ما ارتضوه ، عسى أن تسنح الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه

هذه فيما نعتقد أصبح علاقة يتخيلها العقل وتنبئ عنها الحوادث بين النبي وابن عمه العظيم
أما العلاقة بين علي وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء فهي علاقة الزمالة المرعية والتنافس الذى يثوب إلى الصبر والتجمل والتقية

فن المعلوم أن علياً كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقيه ، وأنه لم يزل مدفوعاً عن حقه هذا منذ انتقل النبي عليه السلام إلى الرفيق الأعلى . واحتج المهاجرون على الأنصار في أمر الخلافة بالقرابة منه صلوات الله عليه . قال : « ولا احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلعجوا^(١) عليهم . فإن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم ، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم »

كانك كان رأيه في الخلافة يوم بويع بها الصديق ، ثم بويع بها الفاروق ، ثم بويع بها عثمان وجاءت قضية الإرث بعد قضية الخلافة في أوائل عهد

(١) فلعجوا : أى انتصروا عليه .

الصديق فباعدت الفرجة بين القلوب وأطالت العزلة بين الأصحاب ،
 وبخلاصة هذه القضية أن فاطمة والعباس رضى الله عنهما طلبا
 ميراثهما في أرض فدك وسهم خيبر فذكر لهما الصديق حديث
 النبي عن إرث الأنبياء ، ونصه في روايته « نحن معاشر الأنبياء ،
 لا نورث . ما تركناه فهو صدقة . إنما يأكل آل محمد من هذا
 المال »

فغضبت فاطمة ولم تكلمه حتى ماتت ، ودفنها على ليلا
 ولم يؤذن بها أبا بكر . وقيل إن علياً تخلف عن البيعة ستة أشهر
 إلى ما بعد وفاتها . ثم أرسل إلى أبي بكر أن اثنتا ولا يأتنا معك
 أحد . وتلقاه وعنده بنو هاشم فقال : « إنه لم يمنعنا من أن
 نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه
 الله إليك ، ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم
 به علينا »

ومع هذا اليقين الراسخ عنده في حقه وحق غيره نرجع إلى
 سيرته وأحاديثه فنرى ولا ريب أنها أقل ما تشعر به النفس
 الإنسانية في هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولا نجد في خطبه
 ومساجلاته التي ذكر فيها الحلفاء السابقين كلمة تستغرب من
 مثله أو يتجاوز بها حد الحجة التي تنهض بحقه . بل الغريب أنه
 لزم هذا الحد ولم يجاوزه إلى جمحة غضب تفلت معها بواد
 اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لاثميه

وقد أحان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله ، وجاملهم مجاملة
الكريم بمسلكه ومقاله . ولم يبدر منه قط ما ينم على كراهية
وضغن مكتوم . ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية إذا
رى بها كما يأنف العزيز الكريم . وفي ذلك يقول في خطاب إلى
معاوية : « ذكرت لإبطائي عن الخلفاء وحسدى إياهم والبنى
عليهم ، فأما البغي فعاذ الله أن يكون ؟ وأما الكراهة لهم فوالله ما
أعتذر للناس من ذلك »

وأولى أن يقال إن دلائل وفاته في حياتهم وبعد ذهابهم
كانت أظهر من دلائل جفائه . فإنه احتضن ابن أبي بكر
محمداً أو كفله بالرعاية ورشحه للولاية ، حتى حسب عليه
وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ، وقد سمي ثلاثة من أبنائه
بأسماء الخلفاء الذين سبقوه : وهم أبو بكر وعمر وعثمان
ويخطئ جداً من يتخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلاً على
كراهته لعمر أو نقمة منه في أبنائه . فقد أسرع عبيد الله بن
عمر إلى الهرمزان فقتله انتقاماً لأبيه ولم ينتظر حكم ولي الأمر فيه
ولا أن تقوم البيئة القاطعة عليه . فلما استفتى في هذه القضية
أفتى بالقصاص منه ، ولم يغير رأيه حين تغير رأى عثمان فأعفاه
من جريمة عمله . لأنه هو الرأى الذى استمدت من حكم الشريعة
كما اعتقده وتحراه ، وبهذا الرأى دان قاتله عبد الرحمن بن
ملجم ، فأوصى وكرر الوصاة ألا يقتلوا أحداً غيره ، لمظنة المشاركة

به وبين رفقاءه في التأمر عليه

* * *

ولأنك لن تجد إنساناً أعرف بالعهد ولا أصون له ممن يتذكّره في حومة الحرب ويرى أن التذكير به ينزع السلاح من الأيدي ويعود بالخصمين المتناجزين إلى الصفاء والإخاء

فما حارب على "عدو" له سابقة مودة به إلا أن يذكره بتلك السابقة ويستنجد الصداقة الأولى فيه على العداوة الحاضرة ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة في وقعة الجمل وهما ملحان في حربيه وإنكار بيعته

فخرج حاسراً لا يحتمى بدرع ولا سلاح ، ونادى : يا زبير ؟ اخرج إلى . فخرج إليه شاكاً في السلاح ، وسمعت السيدة عائشة فصاحت : واحرباه ! إذ كان يخضم على "مقضيّاً" عليه بالموت كائناً ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنضال فلما تقابل على "الزبير اعتنقا ، وعاد على "يسأله : ويحك يا زبير ! ما الذي أخرجك ؟ قال : دم عثمان

قال : قتل الله أولانا بدم عثمان وجعل يذكره عهوده وعهود رسول الله ، ومنها مقالة النبي : والله سبقتله وأنت له ظالم ، فاستغفر الزبير وقال : لو ذكرتها ما عحرجت

* * *

ولا وقف على " على جثة طلحة بكى أحر بكاء ، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول : عزيز على " أن أراك أبا محمد مجدلاً تحت نجوم السماء ، وتمنى لو قبضه الله قبل اليوم هذا بعشرين سنة

ومثل على " لا يرزق صداقة الألفاء ، لأنه من أصحاب المزايا التي تغرى بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسايرة والمداواة . فهو شجاع ، عالم ، بليغ ، ذكي ، موصول النسب بأعرق الأرومات ، فإن لم يحسد هذا فمن يحسد ؟ وإن حسد فما الذي يقل من غرب حاسديه ؟ وما الذي يفي بهم إلى القصد في عداوته والتأليب عليه ؟

لأنهم يستبعدون يومه في الإمارة والسلطان ، وإذا استقربوا يومه في الإمارة والسلطان فلا مطمع لهم في النفع على يديه وهو قوام بالقسط على الأموال والحقوق ، فنصيبه إذن منهم نصيب المحسود الذي لا رجاء له في هودة من حاسديه ، وليس أحق من الناس على صاحب عظمة لم يطمعوا في نفعه ولم يزلوا على طمع في النفع من خصومه ، وبليته بهم أكبر وأدهى حين لا يصطنع الدهان ولا يعتمد معهم إلى الختل والروغان . . . وعلى أنه لو داهنهم وراوغهم لما اغتفروا له ذنب العظمة التي لا تحميها حماية من طمع أو نكاية ، أو كما قال الحكيم الغربي : « إن نسي أنه أسد لم ينسوا أنهم كلاب »

ثقافته

السنة الخلق أقلام الحق
كلمة سائغة ليس أصدق منها إن صدقت ، وهي صدق
في كثير من الأحيان
من هذه الألقاب الشائعة لقب الإمام الذي اختص به عليّ
بن جميع الخلفاء الراشدين ، والذي يطلق إذا أطلق فلا ينصرف
إلى أحد غيره ، بين جميع الأئمة الذين وسعوا بهذه السمة من
سابقه ولاحقه

ولم وليس هو بفرد في الإمامة بجملة معانيها ؟
ألم يكن الصديق إماماً كعليّ ؟ ألم يكن الفاروق إماماً كعليّ ؟
ألم يكن عثمان إماماً كعليّ ؟ ألم يكونوا خلفاء راشدين إذا
قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة ؟ بلى ؛ كانوا أئمة مثله وسبقوه
في الإمامة

ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير
منازع ولا شريك ، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم
الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية ، ولا أن يتحيز بعسكر
يقابله عسكر ، وصفة تناوبها صفة ، ولا أن يصبح رمزاً للخلافة

يقترن بها ولا يقترن بشيء غيرها . فكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الإمام بغير تعقيب ولا تذييل هو الإمام كلما وقع الاشتباه والالتباس

وذاك هو علي بن أبي طالب كما لقبه الناس وجرى لقبه على الألسنة فعرفه به الطفل وهو يسمع أماد يحه المنغومة في الطرقات ، بغير حاجة إلى تسمية أو تعريف

وخاصة أخرى من خواص الإمامة ينفرد بها علي ولا يجاريه فيها إمام غيره ، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت في صدر الإسلام ، فهو منشئ هذه الفرق أوقطبها الذي تدور عليه . وتدرت فرقة في الإسلام لم يكن علي معلماً لها منذ نشأتها ، أو لم يكن موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها ، تقول فيه وترد على قائلين .

وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشرعية ، وعلماء الأدب والبلاغة . فهو أستاذ هؤلاء جميعاً بالسند الموصول فالإمام أحق لقب به ، وهو أحق الأئمة بلقب الإمام

* * *

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء في كثير من صفاته ، وكثير من معارض حياته ، وطوارئ أوقاته وكانت له في الإمامة آية أخرى من هذه الآيات

فآية الشهداء أنهم يبخسون حقهم في الحياة ، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات .

فقل أن سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه ، وقل أن تحدث الناس بفضل لم ينحلوه إياه ، رثل أن توجه الثناء بالعلم إلى أحد من الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه

نحلوه ديواناً من الشعر فيه عشرات من القصائد وليس بينها إلا عشرات من الأبيات تصح نسبتها إليه

ونحلوه علماً سموه علم « الجفر » وزعموا أنه علم النجوم والأزياج الذي يكشف عن حوادث الغيب إلى آخر الزمان

ونحلوه مقامات تخلو من أشيع الحروف في الكلمات وهو حرف الألف ، ولا يعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل

عصر الصناعة في أيام العباسيين وما تلاها

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالاً لم تعرف ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الإغريقية بما لها من غرائب النحت

والاشتقاق

وبعض ما نحلوه يزيد قدره ويرفعه شأنه ألا تصح نسبته إليه وبعض ما بقي له — غير مشكوك فيه ولا يختلف عليه —

كاف لتعظيم قدره وإثبات إمامته في عصره ، وبعد عصره وعندنا أنه رضى الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ،

وكان نقده للشعراء نقد علم بصير يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب ، ومن يبصره بوجوه المقابلة بينهم أنه سئل : من أشعر الشعراء ؟ قال : « إن القوم لم يجرؤوا في حلقة تعرف الغاية عند قصبتها . فإن كان ولا بد فالملك الضليل »

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب (المدارس) والأغراض الشعرية بين العرب . فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكة الإجادة في شعره ، والنبي عليه السلام يرى ذلك حيث سألوه أن يأذن لعل في هجاء المشركين فقال : ليس بذلك . وأحاطهم إلى حسان بن ثابت ، وندب له من يبصره بمثالب القوم

أما كتاب الجفر أو علم الجفر فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل في جميع ما نحلوه وأضافوا إليه . فثل على في تقواه وفضله لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه . وليس هو مما يليق بورعه ولا ذكائه ، وقد نهى وشدد النهى عن تعلم النجوم واستطلاع الغيب بأمثال هذه العلوم ، فمن المحقق الذي لا خلفة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارات التتار وما إليها هي من مدخول الكلام عليه ، وما أضافه النساخ إلى

الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل
ولا نجزم مثل هذا الخزم في أمر المقامات التي خلت من
بعض الحروف ، لأن العقل لا يمنعها قطعاً كما يمنع استطلاع
أنيب المفصل من أزياج النجوم ، ولكننا نستبعد جداً أن
تكون هذه المقامات من كلام الإمام لاختلاف الأسلوب
واختلاف الزمن وحاجة النسبة هنا إلى سند أقوى من السند الميسر
لنا بكثير

وكذلك نستبعد أنه قال لكاتبه ليظهر علمه بغريب اللغة :
« ألصق روائفك بالحبوب وخذ المزبر بشناترك واجعل هندورتك
إلى قبيل حتى لا أنى نفية إلا أودعتها مجمطة جلجلانك »
أى « ألصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بما بين أصابعك
واجعل عينيك إلى وجهى حتى لا ألفظ بلفظة إلا وعيتها في سواد
قلبك »

فإن الولوج بإظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف في صدر
الإسلام ، ولم يلتفت الناس إلى ادعائها إلا بعد استعجام العرب
ونذرة العارفين

* * *

إلا أننا نسقطها جميعاً فلا نسقط بها فضلاً ترجح به موازين
الإمام في حساب الثقافة ، بل نحسبها فضلاً — إن شئنا — ونسقطها
فيبقى له بعدها السهم الراجح في تلك الموازين

تبقى له الهداية الأولى في التوحيد الإسلامي والقضاء الإسلامي والفقه الإسلامي وعلم النحو العربي وفن الكتابة العربية ، مما يجوز لنا أن نسميه أساساً صئلاً ، الموسوعة المعارف الإسلامية في جميع العصور ، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها في الصدر الأول من الإسلام

وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التي تسجل له في ثقافة الأمم عامة كما تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية ، على تباين العصور

ففي كتاب نهج البلاغة فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تتسع به دراسة كل مشغل بالمعتقد وأصول التأليه وحكمة التوحيد

وربما تشكك الباحث في نسبة بعضها إلى الإمام لغلبة الصيغة الفلسفية عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التي اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الإغريقية والأعجمية ، ولا سيما الكلام على الأضداد والطبائع والعدم والحدود والصفات والموصوفات ؛ ولكن الذي يقرؤه الباحث ولا يشك في نسبته إلى الإمام أو في جواز نسبته إليه قسط واف لتحقيق رأى القائلين بسبق الإمام في مضمار علم الكلام ، واعتراف المعترفين له بالاستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات ، وهو على جملة خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق في

كماله ، ومن أمثلته قوله : « الحمد لله الذى لم يسبق له حال
حالا ، فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً ، ويكون ظاهراً قبل أن
يكون باطناً ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز
غيره ذليل ، وكل قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ،
وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل
سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها ،
ويذهب عنه ما بعد منها ، وكل بصير غيره يعمى عن خفى
الألوان ولطيف الأجسام ، وكل ظاهر غيره باطن ، وكل
باطن غيره غير ظاهر ، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان
ولا تخوف من عواقب زمان ، ولا استعانة على من شاور ،
ولا شريك مكائر ، ولا ضد منافر ، ولكن خلائق مربوبون وعباد
داخرون — أى ضارعون — لم يحلل فى الأشياء فيقال هو فيها
كائن ، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن ، لم يؤده خلق ما ابتدأ
ولا تدبير ما ذرأ ، ولا وقف به عجز عما خلق ، ولا وبلت عليه
شبهة فيما مضى وقدر ، بل قضاء متقن ، وعلم محكم وأمر مبرم ... »
سبحانه : أما القضاء والفقه فالمشهور عنه أنه كان أقضى أهل زمانه
وأعلمهم بالفقه والشريعة ، أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه
وأفقه وأقدر على إخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف
المأثور ، وكان عمر ابن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من
مسائل القضاء العويصة : قضية ولا أبا حسن لها : لأنه كان فى

هذه المسائل يتجاوز التفسير إلى التشريع كلما وجب الاجتهاد
بالرأى الصائب والقياس الصحيح

وفي أخباره ما يدل على علمه بأدوات الفقه كعلمه بنصوصه
وأحكامه، ومن هذه الأدوات علم الحساب الذي كانت معرفته به
أكبر من معرفة فقيه يتصرف في معضلات المواريث، لأنه
كان سريع الفطنة إلى حيله التي كانت تعد في ذلك الزمن الغزاً
تكاد في حلها العقول، فيقال إن امرأة جاءت إليه وشكت إليه
أن أخاها مات عن ستمائة دينار ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار
واحد. فقال لها: لعله ترك زوجة وابنتين وأماً وأبناً عشر أخاً
وأنت؟ فكان كما قال

وسئل يوماً في أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين
وابنتين. فأجاب من فوره: صار ثمنها تسعاً. وسميت هذه
الفريضة بالفريضة المنبرية لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة
وفي هذه الإجابات دليل على الذكاء وسرعة البديهة فضلاً
عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب

ولإذا قيل في قضائه إنه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه
صح أن يقال في علم النحو إنه لم يكن أحد أوفر سهماً في إنشاء
هذا العلم من سهمه. وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلي شكاً إليه
شيوع اللحن على ألسنة العرب فقال له: اكتب ما أُملي عليك،
ثم أملاه أصولاً منها: إن كلام العرب يتركب من اسم وفعل

يُحرف . فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل . وإن الأشياء ثلاثة ظاهر ومضمر وشئ ليس بظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاوت العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر . فبني اسم الإشارة على قول بعض النحاة . ثم قال لأبي الأسود : أنح هذا النحو يا أبا الأسود . فعرف العلم باسم النحو من يومها وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند إلى المقابلة بين اللغات الأخرى في اشتقاق أصولها النحوية ولا سيما السريانية واليونانية ، ولكن الروايات العربية لا تنتهي بنا إلى مصدر أرجح من هذا المصدر ، وغيرها من الروايات الأجنبية والقروض العلمية لا يمنع عقلاً أن يكون الإمام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربي من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التي تغشى الكوفة وحواضر العراق والشام ، وهم هنالك غير قليل ، ولا سيما السريان الذين سبقوا إلى تدوين نحوهم ، وفيه مشابهة كبيرة لنحو اللغة العربية

وليس الإمام عليّ أول من كتب الرسائل وألقى العظات وأطال الخطب على المنابر في الأمة الإسلامية ولكنه ولا ريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب ، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذي يقتدى به في الأساليب . لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبالغين لا صياغة

منشئين ، ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولا يقصدون إلى فن الأداء وصناعة التعبير ، ولكن الإمام علياً تعلم الكتابة صغيراً ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى إلى طور التفنن والتجويد ، فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع هو فيما نرى أول أساليب الإنشاء الفني في اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه ، وثأى له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذي أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الإسلامية . فديوانه الذي سمي « نهج البلاغة » أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية ، وأشماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتماله على جزء صحيح النسبة إليه صحيح الدلالة على أسلوبه ، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب إلى الإقناع من دلالة الأسانيد التاريخية ، لأن طابع « الشخصية العلوية » فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثانياً الحروف ، يوحى إليك حيناً وعينه أنك تسمع الإمام ولا تسمع أحداً غير الإمام ، ويعز عليك أن تلمح فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام

على أننا نبالغ ما نبالغ في تمحيص المنحول وغير المنحول من أقوال الإمام ومن فنون ثقافته العامة ثم تبقى لنا بقية تسمح لنا ،

بل توجب علينا ، أن نسأل : كيف يتسنى العلم بهذا لأى كان من الناس فى مثل ذلك الزمان ؟
والسؤال لا بد منه ، ولا نظن قارئاً من قراء تاريخ الإمام لم يخطر هذا السؤال بباله ولم يرد على لسانه

ولكن لا بد معه من تصحيح الباعث عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك ، فالباعث عليه أننا نبالغ فى تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية ، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين

لكن البداوة العربية لم تكن فى الواقع معزولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك العزلة التى تخطر لنا للوهلة الأولى
فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم ، وكانت للمعارف الإنسانية أشعتها التى تتخلل الجزيرة العربية من قديم العصور

* * *

على أن هذه الفنون من الثقافة — أو جلتها — إنما تعظم بالقياس إلى عصرها والجهود التى بذلت فى بدايتها
فحصة الإمام من علم النحو — مثلاً — عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التى دونها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظرين فيه
وهكذا يقال فى الحساب والمسائل العلمية التى من قبيله ،

فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر وهي في ابتدائها أصعب جداً منها في أطوارها التي لحقت بها بعد نموها واستفاضة البحث فيها

أما فن الثقافة الذي يقاس بمقياس كل زمن فلماذا هو عظيم في جميع هذه المقاييس ، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات ، فذلك هو فن الكلم الجامعة أو فرائد الحكمة التي قلنا آنفاً لأنها تسجل له في ثقافة الأمم عامة كما تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية ، على تباين العصور

فالكلم الجوامع التي رويت للإمام طراز لا يفوقه طراز في حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة
وقد قال النبي عليه السلام : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل »

فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الإمام عليّ في حكمته التي تقارن بحكم أولئك الأنبياء

فهى من طراز الحكم الماثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو سليمان بن داود

يزيد عليها أنها أبدع في التعبير وأوفر نصيباً من ذوق الجمال كقوله مثلاً : « نفس المرء خطاه إلى أجله »
أو قوله : « من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة » . . .
أو قوله : « المرء نجوى تحت لسانه » أو قوله : « الحلم عشيرة » .

قوله : « من لان عوده كثفت أغصانه » أو قوله : « كل رعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع » إلى أشباه هذه التعميمات الحسان التي تحار فيها أى مزاياها أفضل وأقوم : صدق المعنى ، أو بلاغة الأداء ، أو جودة الصناعة

وبعض أقواله ينضح بدلائل « الشخصية » التي تلازم صاحب الفن الأصيل فتلبس معانيه لباساً من خوارج نفسه وأحداث زمانه ، كما قال : « صواب الرأي بالدول : يقبل بإقبالها ويذهب بدهابها » أو كما قال : « ما أكثر العبر وأقل الاعتبار ! » . . . أو كما قال : « شاركوا الذى أقبل عليه الرزق فإنه أخلق للغنى وأجدر بإقبال الحظ عليه » . . . أو كما قال : « إذا هبت أمراً فقع فيه ، فإن شدة توقيه أعظم مما نخاف منه » أو كما قال : « لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصابع ولا يضارع ولا يتبع المطامع »

وله عدا هذه الحكم التي تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها ، وتنفلد إلى كل سامع يظن لها كقولها : « كل معدود منقوض وكل منقوض متوقع آت » أو قوله : « إذا كثرت القدرة قلت الشهوة » . . . أو قوله : « أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه » . . . أو قوله : « من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه

ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم . . .

وله في المواقف المرتجلة كلمات هي أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة ، فلما خرج وحده لبعض المهام التي تردد فيها أنصازه قالوا له يشيرون إلى أعدائه : يا أمير المؤمنين نحن نكفيكم . فقال : « ما تكفوني أنفسكم فكيف تكفوني غيركم ؟ إن كانت الرعايا قبلي لشكو حيف رعاتها ، وإنني اليوم لأشكو حيف رعتي ، كأني المقود وهم القادة ، أو الموزوع وهم الوزعة »

ورثي محمداً بن أبي بكر حين بلغه مقتلته على أيدي أصحاب معاوية فقال : « إن حزننا عليه قدر سرورهم به ، ألا لإنهم نقصوا بغيضاً ونقصنا حبیباً »

وقد أخطأ موير Moyer المؤرخ الإنجليزي حين قال إن علياً حكيماً كسليمان وهو مثله حكمته لغيره . . . يعني أنه ينصح الناس ولا ينتفع بالنصيحة . فإن موير أحجى أن يفرق بين عمل الإنسان بنصحه وبين انتفاعه بنصحه . ولا شك أن علياً كان من العاملين بما يقولون ومن المنتصحين بما ينصح به الناس . أما أنه لم ينتفع بحكمته فالطبيب لا يقدح في علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بطبه ، فقد يكون الإخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء

ولا يفوتنا أن بعض هذه النصائح قد نسب إلى قالة من

الأوائل غير الإمام رضى الله عنه ، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى إلى الصحيح والمنحول من كلام الإمام الذى جمعه الشريف الرضى فى « نهج البلاغة » وفرغ من جمعه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون ، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب إلى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة فى التعريف بعبقريّة الإمام . فحسبنا أن أسلوب الإمام معروف فى بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه ، وأن طابع هذا الأسلوب شائع فى الكتاب لا تقدح فيه كلمة ظاهرة التلفيق هنا أو كلمة ظاهرة الإقحام هناك ، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير . فنحن لا نخطئ أن نرى فى هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حيناً وتنقطع حيناً كالوحدة التى نراها بغير انقطاع فى كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد ، وهذه الوحدة وحدها مغنية لنا فى تبيان ثقافة الإمام ، أو تذوق أسلوبه الذى لا تخطئ فيه مرة جزالة البادية وصقل الحاضرة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذى لا تكلف فيه

* * *

ولا يتم القول فى ثقافة الإمام على رضى الله عنه ما لم نتمنه بالقول فى نصيبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب ، الذى هو مضماره الأول ومناط شهرته التى تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة ، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة

فجملة ما يقال في هذا الصدد أن فن الإمام العسكري هو
 فن البطل المغوار الذي يناضل الأفراد وينفع الجيش الذي هو
 فيه بقودة الشجاعة وإذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه ،
 وأنه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم وكيف
 يحتال على عدوه بما يخلع قلبه ويفت في عضده ، ومن حيله
 المشهورة في توهين عزم عدوه أنه أمراً بعقر الحمل في الوقعة
 المعروفة باسمه ، لأنه كان علم القوم الذي يلتفون به ويشبتون
 بشبونه وهذا كله فن البطل المغوار الذي يفرق العسكريون بينه
 وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش

ولم يرد لنا من أنباء الإمام في هذا الباب ما نحكم به على
 قيادته العسكرية بهذا الاعتبار
 نعم إنه كان يقسم جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب وطلية
 ومؤخرة وأشباه ذلك من التقسيمات التي جرى عليها في وقعة صفين
 على التخصيص

وكانت له وصاياه المحفوظة في تسيير الجيوش وتأديب الجند
 ومعاملتهم لسكان البلاد ، ومنها قوله : « إذا نزلتم بعدو أو نزل
 بكم فليكن معسكركم من قبل الأشراف وسفاح الجبال ، أو
 أثناء الأنهار ، كما يكون لكم رداءً ودونكم رداءً ، ولتكن
 مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء في صياصي
 الجبال ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة

أو أمن ، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، وإياكم والتفرق فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا ارتحلتم فانزلوا جميعاً ، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة - أى محيطة بكم - ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضمة »

ومنها قوله : « ولا تسر أول الليل فإن الله جعله سكناً وقدره مقاماً لا ظعنًا » ومنها قوله للولاء : « إني سيرت جنوداً هي مارة بكم إن شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف الشذى ، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرفة الجيش إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهباً إلى شعبه ، فنكلو من تناول منهم شيئاً ظلماً عن ظلمهم ، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضاربتهم والتعرض لهم . . . »

وهذه وما هو من قبيلها مناهذ موروثة أو أدب هو أقرب إلى نظام الإدارة منه إلى خطط التعبئة وقيادة الميدان

وخلاصة ذلك كله أن ثقافة الإمام هي ثقافة العلم المفرد والقيمة العالية بين الجماهير في كل مقام وأنها هي ثقافة الفارس المجاهد في سبيل الله ، يداول بين القلم والسيف ، ويتشابه في الجهاد بأسه وتقواه . لأنه بالبأس زاهد في الدنيا مقبل على الله ، وبالتقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله

في بيته

خلاصة رأى الإمام في المرأة أنها « شر كلها ، وشر ما فيها أنه لا بد منها »

وكان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التي تليق بالرجل وتحمد منه ، « فخير خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل . فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلمها ، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها »

والإمام صائر إلى رأيه هذا في المرأة من كلتا طريقيه ، وهما طريق الحكيم الذي ينظر إليها على سنة الحكمة القديمة ، وطريق العابد الذي ينظر إليها على سنة العبادة في جميع العصور ، ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حججه قط عن فطرته الغالبة عليه وهي فطرة الفارس المطبوع على آداب الفروسية ، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها ، فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت إليه ، ولا غفل قط عن الوصية بها في موطن يستدعي هذه الوصية ، ومن أمثلة وصاياه في هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين حيث يقول . . . « لا تهيجوا النساء بأذى

وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم ، فلأنهن ضعيفات القوى
والآنفس والعقول ، إن كنا لنؤمر بالكف عنهن ولأنهن لمشركات ،
وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر — أى الحجر —
أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده . . . »

* * *

وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية كما يظهر من غير حادث
واحد ، ومن ذلك صبية السبي التي استولى عليها وبني بها لساعتها
وجعلها قسمه من الخمس قبل تقسيمه ، فرأى بعض أصحابه في
ذلك ما شكوه إلى النبي عليه السلام من أجله ، وربما كان
هذا سبب تحذيره منها في الغزوات خيفة على الجيش من
شواغلها ، فكان يقول لسراياه وجيوشه إذا شيعها : « اعزبوا عن
النساء ما استطعتم » ويوصى في أمثال هذه المواطن باجتنابها
إلا أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغنى عن سائر
النساء ، فلم يعرف له هوى لامرأة خاصة من نسائه غير الهوى
الذى اختص به السيدة فاطمة رضى الله عنها كرامة لمنزلتها عنده
ومنزلتها عند أبيها ، وهو غير الهوى الذى تبعته المرأة بمغريات
جنسها

كان جالساً في أصحابه فمرت بهم امرأة جميلة فرماها القوم
بأبصارهم فقال رضى الله عنه : « إن أبصار هذه الفحول طوامح ،
وإن ذلك سبب هياجها ، فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه

قليلا مس أهله ، فإنما هي امرأة كامرأة »
وعلى الجملة يمكن أن يقال إن آراء الإمام في المرأة هي
خلاصة الحكمة القديمة كلها في شأن النساء

فهن شرّ لا بد منه باتفاق آراء الأقدمين ، سواء منهم
حكماء الهند واليونان أو الحكماء الذين نظروا إلى المرأة بعين الدين
من أبناء إسرائيل وآباء الكنيسة المسيحية وأئمة الإسلام

لأنهم كانوا جميعاً يمزجونها بالشهوات التي تثيرها عامدة أو
غير عامدة ، ويلقون عليها تبعة الشرور التي تنجم عنها بمكيدتها
أو على الرغم منها . ولم تتغير هذه النظرة بعض التغير إلا في
الآزمنة الحديثة التي نظرت في استقلال التبعات على أساس
« الحرية الشخصية » . . . فحاسبت المرأة بما تجنيه وأوشكت
أن تبالغ في تبرئها من جنباياتها

فن السهو عن الحقيقة أن نتخذ آراء الأقدمين في المرأة
دليلاً على نصيبهم من الغبطة أو السكينة في حياتهم البيتية .
لأننا خلقاء أن نحسبهم جميعاً من الأشقياء المعذنين في بيوتهم ،
وهو ما تأباه البداهة وتأباه أنباء التاريخ عن كثير من الأزواج
والزوجات الناهبات

وليس من اللازم في حياة الإمام خاصة أن يستمد آراءه في
المرأة من حياته البيتية ، فقد كانت تجاربه في الحياة العامة
مدداً لا ينفد لهذه الآراء التي شاعت بين الأقدمين حتى

أوشكت ألا تحتاج إلى تجربة مكررة ، وشاءت المقادير أن تنقضي حياة الإمام والمرأة يد في القضاء عليها ، فكانت حياته الغالية مهراً لقطام التي قال فيها ابن أبي مياس المرادى :

ولم أر مهراً ساقه ذو سباحة كهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من على وإن غلا ولا فتك لإدون فتك ابن ملجم

والذى يجزم به مؤرخ الإمام أن حياته البيتية خلّت من شكاة لم يألفها الأزواج في زمانه ، وأنها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله

عاش مع فاطمة رضى الله عنها لا يقرب بها زوجة أخرى حتى ماتت بعد موت النبي عليه السلام بستة أشهر . وهى رعاية لها ورعاية لمقام أبيها لا شك فيها . فقد كان النبي عليه السلام كما جاء فى الأثر يغار لبناته غيرة شديدة ، وروى عنه أنه قال وهو على المنبر مرة : « إن بنى هشام بن المغيرة استأذنى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد على بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنها بضعة منى يربىنى ما راها ويؤذنى ما أذاها »

وربما كان من وفائه لها غضبه لغضبها ، فأحجم عن مبايعة أبى بكر إلى ما بعد وفاتها على بعض الروايات ، وهجره

كما هجرته مدة حياتها . وقد ولدت له أشهر أبنائه وبناته الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم وزينب ، وماتت ولم تبلغ الثلاثين وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف في عددهم المؤرخون ، ويؤخذ في إحصائهم في « الرياض النضرة » للمحب الطبري أنه كان رضى الله عنه واقر الحظ من الدرية ، بى منهم بعده كثيرون

وكان على ما يفهم من خلائقه ومن سيرته وأخباره أباً سمحاً يستريح الأبناء إلى عطفه ويحترون على مساجلته الرأى فى أخطر ما ينوبه من الأحداث الجسام

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها جاءه ابنه الحسن بعد صلاة الصبح فقال له : قد أمرتك فعصيتنى فتقتل غداً بمعصية لا ناصر لك فيها . فسأله : وما الذى أمرتنى فعصيتك ؟ قال : أمرتك يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تباع حتى يأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فإنهم لم يقطعوا أمراً دونك فأبيت . ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يصططحوا . فإن كان الفساد كان . على يدى غيرك ، فعصيتنى فى ذلك كله !

فلم يأنف أن يساجله الرأى ليقنعه وجعل يقول له : « أى بنى ! أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله

لقد أحيط بنا كما أحيط به ، وأما قولك لا تباع حتى تأتي بيعة
 الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ،
 وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فإن ذلك كان وهناً على أهل
 الإسلام . . . وأما قولك : اجلس في بيتك فكيف لي بما قد
 لزمني ؟ ومن تريدني ؟ أتريد أن أكون مثل الضبع التي يحاط بها
 ويقال دباب دباب . ليست هنا حتى يحل عرقوبها ثم تخرج .
 وإذا لم أنظر فيما لزمني من الأمر ويعينني فمن ينظر فيه ؟ فكف
 عنك أي بني »

وهذه معاملة « أخوة » تستغرب في الأجيال الماضية التي
 كان للأبوة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على
 الرقيق ، ولا ينقصها أنه لطم الحسن يوماً لأنه ظن به تقصيراً في
 الدفاع عن عثمان ، فتلك سورة الغضب في موقف من أنذر
 المواقف التي لا يقاس عليها في سائر الأحوال
 وكان رضى الله عنه يزعمه أن يحيط به أبنائه في مجافل الروع
 يشاهد الزحوف ، فيخرج إليها وهم حافون به يمينه وشماله ،
 ومنهم من يحمل اللواء بين يديه ، وذلك زهو الشجاع الفخور
 بأشباه الشجعان

واشتهر بالعطف على صغارهم كما اشتهر بمودة كبارهم ،
 فكان أحب شيء إليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبونهم ،
 وكانت له طفلة ذكية ولدتها له زوجة من بني كلب يخرج بها

إلى المسجد ويسره أن يسألها أصحابه : من أخوالك ؟ فتجيب :
وه . وه . محاكاة لعواء الكلاب

وكان يقول : « إن للوالد على الولد حقاً ، وإن للولد على
الوالد حقاً ، فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء إلا في
معصية الله سبحانه ، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن
أدبه ويعلمه القرآن »

ومن إحسان التسمية أنه هم بتسمية ابنه حرباً لأنه يرشحه
للجهاد وهو أشرف صناعاته ، لولا أن رسول الله سماه الحسن ،
وهو أحسن فجرى على هذا الاختيار في تسمية أخويه الحسين
والحسن . وأتم حق أبنائه في إحسان أسمائهم فاختر لهم أسماء
النبي وأسلافه من الخلفاء : أبي بكر وعمر وعثمان

* * *

أما معيشتة في بيته بين زوجاته وأبنائه فمعيشة الزهد والكفاف ،
وأوجز ما يقال فيها أنه كان يتفق له أن يطحن لنفسه ، وأن
يأكل الخبز اليابس الذي يكسره على ركبتة ، وأن يلبس الرداء
الذي يرد فيه ، وأن أحداً من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل
من النصيب الذي مات عنه وهو خليفة المسلمين

وكان الخليفة يوم كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا
فكان بيته نقيض القصر الذي تعرض الدنيا المملوكة بين
أركانها وزواياها .

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة على مطابع دار المعارف بمصر

دارالمخارف بمطهر

تقدم هذه المجموعة النفيسة من بعض مؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد :

- الله
- الصديقة بنت الصديق
- ٣٠٠ صفحة . قطع كبير .
- ١٢٠ صفحة . قطع صغير .
- الثمن ٧٠ قرشاً
- الثمن ٢٠ قرشاً
- أشات مجتمعات في اللغة والأدب
- الديمقراطية في الإسلام
- ١٥٦ صفحة . قطع متوسط .
- ١٨٠ صفحة . قطع صغير .
- الثمن ٢٥ قرشاً
- الثمن ٣٠ قرشاً
- يوميات (أول)
- أثر العرب في الحضارة الأوروبية
- ٤٤٠ صفحة . قطع كبير .
- ١٨٠ صفحة . قطع صغير .
- الثمن ١٠٠ قرش
- الثمن ٢٥ قرشاً
- عبقرية الصديق
- ابن رشد
- ٢٠٨ صفحات . قطع صغير .
- ١٢٠ صفحة . قطع متوسط .
- الثمن ٢٥ قرشاً
- الثمن ٢٠ قرشاً

وفي سلسلة

اقرأ

- شاعر الغزل : عمر بن أبي ربيعة
- برنارد شو
- جميل بثينة
- سارة
- عبقرية الإمام

(ثمن النسخة ٥ قروش)

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

- قروش ج.ع. ٢٠٠
- ١٠٠ ملجم في ليبيا
- ٦٠ ق. ل
- ٧٥ فلساً في العراق والأردن
- ١٢٠ فلساً في الكويت
- ٦٠ مليوناً في السودان
- ١٢٥ مليوناً في تونس
- ١٥٠ دين
- ١٥٠ قروش
- ١٠٠ ق. س
- ١٠٠ ق. ل
- ١٠٠ ق. ل

Bibliotheca Alexandrina



0689224

